دمعة وابتسامة

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكر العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران ... »

دار العرب
للبستاني
٢٨ ش الفجالة ـــ القاهرة

إلى

M. E. H.

أقدم هذا الكتاب ، وهو أول نسخة من عاصفة حياتى ، إلى الروح النبيلة التى تحب النسمات وتسير مع العواصف .

جبران

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران فى الأعوام العشرة الأخيرة من ربيع الحياة إلى صيفها ، فنمت أمياله ونضجت أفكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعرى إلى عالم أسمى وأوسع يتعانق فيه الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقى فى جنباته أشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادئ الأساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الأمس ، فالشباب الحساس الذى كتب «دمعة وابتسامة » بقلم محبر بالدمع قد تحول إلى رجل قوى يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة « جمال الموت » وحكاية « حفار القبور » هو الفرق بين جبران الأمس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التى كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد تشددت اليوم بالعزم فلم تعد تهتز إلا للعواصف ، فالعواصف هى من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه .

ولكن لو تمعنا مليا بمجموع كتابات جبران وتآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الأدبية الحديثة ، لوجدنا أن « لدمعة وابتسامة » مقالا خاصاً بها لأنها كانت أول نغمة من نوعها فى العالم العربى ، فقد خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات ، لأنها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها ويتأثر لها الطالب فى مدرسته والمتأدب فى

مكتبته والصحافى فى إدارته .

عندما ظهرت « دمعة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء فى مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان أكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً ، ولكن لما ابتدأ جبران بنشر « دمعة وابتسامة » غيرّ الناس أفكارهم وعلموا للمرة الأولى أن الشاعر الحقيقى هو الذى يضرب بأصابعه السحرية على أوتار قلوبهم ، ويعيد على مسامعهم فى اليقظة ما تسمعه أرواحهم فى المنام . ومن ذلك الحين ابتدأ فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمعة وابتسامة » والنسج على منوالها ، فلم يمر عامان أو ثلاثة على ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ وأتباع منتشرون فى كل مكان من العالم العربى .

عندما طلبنا إلى جبران جمع « دمعة وابتسامة » ونشرها فى كتاب ، أجابنا ببيت من أحد موشحاته قائلا :

« ذاك عهد من حياتى قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح »

فقلنا له « ذاك عهد من حياتك قد مضى ، ولكنه لم يزل حاضراً فى حياة محبيك ومريديك » .

فأجابنا « إن الشاب الذى كتب قد ترنم بأغنية علوية قبل أن يموت .

قلنا له : وعلينا أن نحفظ تلك الأغنية كيلا تتلاعب بها أيدى الضياع » .

فأجابنا « افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت فى جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ، ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء ، فهو صديق الناس وعدوهم فى وقت واحد » .

فقلنا له « سوف لا ننسى وإن حاولنا التناسى ففى « حفار القبور » ما ينبهنا ويذكرنا » .

نسيب عريضة

نيويورك فى ٢٤ نيسان « أبريل » سنة ١٩١٤

دمعة وابتسامة

توطئة

أنا لا أبدل أحزان قلبى بأفراح الناس ، ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحى وتصير ضحكا . أتمنى أن تبقى حياتى دمعة وابتسامة . دمعة تطهر قلبى وتفهمنى أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنينى من أبناء بجدتى وتكون رمز تمجيدى الآلهة ــ دمعة أشارك بها منسحقى القلب ، وابتسامة تكون عنوان فرحى بوجودى .

أريد أن أموت شوقا ولا أحيا مللا . أريد أن تكون فى أعماق نفسى مجاعة للحب والجمال ، لأنى نظرت فرأيت المستكفئين أشقى الناس وأقربهم من المادة ، وأصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمنى أعذب من رنات المثانى والمثالث .

يأتى المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها ، وعندما يأتى الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس ، فحياة الأزهار شوق ووصال .. دمعة وابتسامة . تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة ، وتسير فوق الطلول والأودية حتى إذا مالاقت نسمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول ، وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها . حياة الغيوم فراق ولقاء .. دمعة وابتسامة . كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير فى عالم المادة ، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقى بنسيمات الموت فترجع إلى حيث كانت . إلى بحر المحبة والجمال . إلى الله ..

حياة الحب

الربيع ..هلمى يا محبوبتى نمشى بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الأودية والمنحدرات . سيرى معى لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعالى لنصعد إلى أعالى الربى ونتأمل فى تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوبا طواه ليل الشتاء ، فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجـرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر .

تعالى لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ، ونملأ نفسينا بأغانى العصافير المسرورة ، ونغتنم استنشاق عطر النسيمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ، ونتبادل قبلات المحبة .

الصيف .. هيا بنا إلى الحقل يا حبيبتى فقد جاءت أيام الحصاد ، وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالى قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا . وجماعة النمل فتأخذ أرضنا . هلمى نجن ثمار الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعتها

المحبة فى أعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء عواطفنا .

هلمى يارفيقتى نفترش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم ، فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادى .

الخريف ..لنذهب إلى الكرمة يامحبوبتى ونعصر العنب ونوعيه فى الأجران مثلما توعى النفس حكمة الأجيال ، ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الأزهار ونستعيض عن العين بالأثر .

لنرجع نحو المساكن ، فقد اصفرت أوراق الأشجار ونثرها الهواء كأنه يريد أن يكفن بها أزهاراً قضت لوعة عندما ودعها الصيف . تعالى فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها أنس الرياض ، وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقى الدموع على أديم التراب .

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهى أثوابها . تعالى يا محبوبتى ، فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودع اليقظة بأغنية نهاوندية مؤثرة .

الشتاء .. اقتربى ياشريكة حياتى ، اقتربى منى ولا تدعى أنفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى أمام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثينى بمآتى الأجيال ، فآذانى قد تعبت من تأوه الأرياح وندب العناصر . أوصدى الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسى ، والنظر إلى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمى قلبى .. اسقى السراج زيتاً يارفيقة عمرى ، فقد أوشك أن

ينطفئ ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالى على وجهك .. إيتى بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر .

اقتربى ! اقتربى منى يا حبيبة نفسى فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها . ضمينى فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة .. ها قد أثقلت أعيننا خمرة السنين .. ارمقينى بعين كحلها النعاس .. عانقينى قبل أن يعانقنا الكرى. قبلينى فالثلج قد تغلب على كل شىء إلا قبلتك .. آه ياحبيبتى ما أعمق بحر النوم . آه ما أبعد الصباح .. فى هذا العالم .

حكاية

على ضفة ذلك النهر ، فى ظل أشجار الجوز والصفصاف جلس ابن زراع يتأمل فى المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى رُبّى بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الأغصان تتعانق والأزهار تتمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة بأسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالأمس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ، ثم علم أنها ابنة الأمير فلام قلبه وشكا نفسه إلى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن لين فى مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان ، ثم سمع الهزاز يناجى الشحرور فبكى لوحدته وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الأشباح ، فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

ـــ « هو ذا الحب يستهزىء بى . ها قد جعلنى سخرية وقادنى إلى حيث الآمال تعد عيوبا والأمانى .. مذلة . الحب الذى عبدته قد رفع قلبى إلى قصر الأمير وخفض منزلتى إلى كوخ الزراع ، وسار بنفسى إلى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع .. أنا طائع أيها الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبل نارية فلذعنى اللهيب . قد

فتحت عيني فلم أر غير الظلمة ، وأطلقت لساني فلم أتكلم بغير الأسى . قد عانقني الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قُبل الحبيب . أنا ضعيف أيها الحب فلمَ تخاصمني وأنت القوى ؟ لماذا تظلمني وأنت العادل وأنا البرئ ؟ لماذا تذلني و لم يكن غيرك ناصرى ؟ لماذا تتخلى عنى وأنت موجدى ؟ إن جرى دمى بغير مشيئتك فأهْرِقه ، وإن تحركت قدماى على غير طرقك فشلها — افعل مشيئتك بهذا الجسد وخلِّ نفسى تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك .. الجداول تسير إلى حبيبها البحر ، والأزهار تتنسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادى . وأنا وبى مالا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه الغيوم ، قد رأيتنى وحيداً فى محنتى ، منفرداً فى غرامى ، بعيداً عن التى لا تريدنى جنديا فى كتائب أبيها ولا ترضانى خادما فى قصرها » .

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

— « وأنتِ يا من أخاف من أمها أن أدعوها باسمها ، أيتها المحجوبة عنى بستائر العظمة وجدران الجلال . أيتها الحورية التى لا أطمع بلقائها إلا فى الأبدية حيث المساواة . يا من تطيعها الصوارم وتنحنى أمامها الرقاب وتتفتح لها الخزائم والمساجد ! قد ملكت قلباً قدسه الحب ، واستعبدت نفساً شرفها الله ، وخلبت عقلا كان بالأمس حراً بحرية هذه الحقول ، فصار اليوم أسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتك أيتها الجميلة فعرفت سبب مجيئى إلى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت إلى حقارتى علمت أن للآلهة أسراراً لا يعرفها الإنسان ، وسبلا تذهب

بالأرواح إلى حيث المحبة تقضي بغير الشرائع البشرية . أيقنت لما نظرت إلى عينيك أن هذه الحياة فردوس بابه القلب البشرى ، ولما رأيت شرفك وذلى يتصارعان صراع مارد ورئبال ، علمت أن هذه الأرض لم تعد وطناً لى . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك كالوردة بين الرياحين ، أن عروس أحلامى قد تجسدت وصارت بشراً مثلى ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت أن دون اجتناء الورد أشواكا تدمى الأصابع ، وأن ما تجمعه الأحلام تفرقه اليقظة ... »

وقام إذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسما الأسى والقنوت بهذه الكلمات :

— « تعال يا موت وأنقذنى ، فالأرض التى تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن . هلم وخلصنى من أيام تخلع الحب عن كرسى مجده وتقيم الشرف العالى مكانه . خلصنى ياموت فالأبدية أجدر ببقاء المحبين من هذا العالم . هناك أنتظر حبيبتى ، وهناك أجتمع بها . » .

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبى عن الحقل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته أقدام ابنة الأمير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه عن الخروج .

فى تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجار الصفصاف صبية تجر أذيالها على الأعشاب ، ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر إليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس . فرأى ابنة الأمير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الكلام أرتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشقة المدامع السخينة ، وقالت بصوت ألطف من نغمة الناى :

— « قد رأيتك يا حبيبى فى أحلامى ، ونظرت وجهك فى وحدتى وانقطاعى ، فأنت رفيق نفسى الذى فقدته ، ونصفى الجميل الذى انفصلت عنه عندما حكم على بالمجيء إلى هذا العالم . قد جئت سراً يا حبيبى لألتقى بك ، وها أنت الآن بين ذراعى فلا تجزع ! قد تركت مجد والدى لأتبعك إلى أقاصى الأرض وأشرب معك كأس الحياة والموت . قم يا حبيبى فنذهب إلى البرية البعيدة عن الإنسان » .

ومشى الحبيبان بين الأشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الأمير ولا أشباح الظلمة .

هناك فى أطراف البلاد عثر رواد الأمير على هيكلين بشريين فى عنق أحدهما قلادة ذهبية ، وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :

« قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ » .

فى مدينة الأموات

تملصت بالأمس من غوغاء المدينة ، وخرجت أمشى فى الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد فى أعمال الإنسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت فى قلبى ألا أفتكر بما صنعه ابن آدم ، وحولت عينى نحو الحقل، كرسى مجد الله فرأيت فى وسطه مقبرة ظهرت فيها الأجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو .

هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات جلست أفكر .. أفكر فى كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة فى هذه ، وفى السكينة السائدة والهدوء المستقر فى تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الأخرى تراب فى تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتا ثم حيواناً ، وكل ذلك يتم فى سكينة الليل .

بينا أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات ، استلفت ناظرى جمع غفير يسير الهوينا تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحاناً محزنة .. موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس . جنازة غنى قوى .. رفات

ميت تتبعها الأحياء وهم يبكون ويولولون ويشون بالهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الأبواق ، وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعانى ، وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق فى صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الأزهار المنمقة بأيدى المتقنين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفتكر ، ومالت الشمس نحو الغروب ، واستطالت خيالات الصخور والأشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور .

فى تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ، ووراءهما امرأة ترتدى أطماراً بالية وهى حاملة على منكبيها طفلا رضيعا ، وبجانبها كلب ينظر إليها تارة وإلى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير وراءها زوجة تذرف دموع الأسى ، وطفل يبكى لبكاء أمه ، وكلب أمين يسير وفى مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة فى زاوية بعيدة عن الأجداث الرخامية ، ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يلتفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الأشجار .

فالتفت إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت فى نفسى : تلك للأغنياء الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : هذه للأغنياء الأقوياء فأين موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة ، وسمعت صوتاً من داخلى يقول .. هناك .

موت الشاعر حياته

خيم الليل بجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوبا ، وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاختبأ فى أوكاره ، وقامت الأرياح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثى فريسة الموت .

وكان فى أطراف الأحياء بيت حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك أن يسقط ، وفى إحدى زوايا ذلك البيت فراش بال عليه محتضر ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى فى ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنية وعلى وجهه المصفر نور الأمل ، وعلى شفتيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الإنسان بأقواله الجميلة يموت جوعاً فى مدينة الأحياء الأغنياء . نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة ، تودع دنيانا قبل أن تبتسم لها الإنسانية . منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته ، وأوراق عليها خيالات روحه اللطيفة .

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ، ورفع يديه نحو العلاء وحرك أجفانه الذابلة كأنه يريد أن يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالى ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال :

تعالى أيتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسى . اقتربى وحلى قيود المادة

فقد تعبت من جرها . تعالى إلى يا أيتها المنية الحارة وأنقذينى من بين البشر الذين يحسبوننى غريباً عنهم لأنى أترجم ما أسمعه من الملائكة إلى لغة البشر . أسرعى نحوى فقد تخلى عنى الإنسان وطرحنى فى زوايا النسيان لأنى لم أكن طامعاً بالمال نظيره ، ولا باستخدام من هو أضعف منى . تعالى إلىّ أيتها المنية العذبة وخذينى فأولاد بجدتى لا يحتاجونى . ضمينى إلى صدرك المملوء محبة . قبلى شفتى التى لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغر المحبوبة . أسرعى وعانقينى يا حبيبتى المنية .

انتصب إذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشرى ، ترتدى ثوباً ناصعا كالثلج ، وتحمل بيدها إكليل زنابق من نبت الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته وأغمضت عينيه كى يراها بعين نفسه ، وقبلت شفتيه قبلة محبة .. قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

فى تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً إلا من التراب وبعض أوراق منثورة فى زوايا الظلمة .

مرت الأجيال وسكان تلك المدينة غرقى فى سبات الجحود والإهمال ، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالا عظيما فى وسط الساحة العمومية ، وعيّدوا له فى كل عام عيدا .. آه ما أجهل الإنسان !

بنات البحر

فى أعماق البحر الذى يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس .. هنالك فى الأعماق حيث الدر الكثير ، جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية ، قد جلسن بين بنات المرجان ينظرن إليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ، ويتحدثن بأصوات موسيقية حديثاً سمعته اللجة فحملته الأمواج إلى الشواطئ فجاء به النسيم إلى نفسى .

قالت واحدة : « هذا بَشَرِىّ هبط بالأمس إذ كان البحر حانقاً » .

فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقاً ولكن الإنسان ــ وهو الذى يدعى بأنه من سلالة الآلهة ــ كان فى حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزيا ، وهذا البَشَرِىّ هو قتيل الحرب » .

فقالت الثالثة : « لا أدرى ما هى الحرب ، ولكنى أعلم أن الإنسان بعد أن تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع الآلات الغريبة ، ومخر العباب فدرى نبتون إله البحار وغضب من هذا التعدى ، فلم ير الإنسان بداً إذ ذاك من إرضاء مليكنا بالذبائح والهدايا ، فالأشلاء التى رأيناها بالأمس هابطة هى آخر تقدمة من الإنسان إلى نبتون العظيم » .

قالت الرابعة : « ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه ! لو كنت أنا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالى لنرى جثة هذا الشاب

فربما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر » .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن فى جيوب أثوابه فعثرن على رسالة فى الثوب الملاصق قلبه ، فأخذت الرسالة واحـدة منهن وقرأت :

يا حبيبى ! ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس لى مسل غير دموعى ، ولا معز سوى أملى برجوعك إلىّ من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن أفتكر إلا بما قلته لى عند الوداع بأن عند كل إنسان أمانه من الدم لابد من ردها يوما ... لا أدرى يا حبيبى ماذا أكتب ، بل أترك نفسى تسيل على الورق .. نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذى يجعل الألم لذة والأحزان مسرة . لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعا بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذى يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الأطفال ؟ ما هذه الوطنية التى من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين والذى لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ـــ؟ إذا كان الواجب ينفى السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج السكينة حياة الإنسان فسلام على الواجب والوطنية .. لا لا يا حبيبى لا تحفل بكلامى بل كن شجاعا ومحباً لوطنك ، ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق .. إذا كان الحب لا يرجعك إلى هذه الحياة فالحب يضمنى إليك فى الحياة الآتية » .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشاب وسبحـن بسكينة محزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن :

« إن قلب الإنسان أقسى من قلب نبتون »

النفس

... وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالا ، وأعطاها رقة نسيمات السحر وعطر أزاهر الحقل ولطف نور القمر .

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربي منها إلا إذا نسيتِ الماضي ، وأهملتِ الآتي ، وكأس حزن وقال : تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة .

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء ، وحلاوة تخرج منها مع أول كلمة ترفع .

وأسقط عليها علماً من السماء ليرشدها إلى سبل الحق .

ووضع في أعماقها بصيرة ترى ما لا يُرى .

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح . وألبسها ثوب شوق حاكتة الملائكة من تموجات قوس القزح ، ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهي خيال النور .

وأخذ الإله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ، ورملا من على شاطئ بحر الأنانية ، وترابا من تحت أقدام الدهور . وجَبَل الإنسان .

وأعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد أمام الشهوات .

ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .

وابتسم إله الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى ، وجمع بين الإنسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

لمت الشمس أذيالها عن تلك الحدائق الناضرة ، وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نوراً لطيفاً ، وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمل فى انقلاب الجو من حالة إلى حالة ، وأنظر من خلايا الأغصان إلى النجوم المنشورة كالدراهم على بساط أزرق ، وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة ، وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة ، سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب فحولت نظرى ، وإذا بفتى وفتاة يقتربان منى ثم جلسا تحت شجرة غضة وأنا أراهما ولا أُرى .

وبعد أن تلفت الفتى إلى كل ناحية سمعته يقول : « اجلسى بجانبى يا حبيبتى واسمعينى . ابتسمى لأن ابتسامتك هى رمز مستقبلنا ، وافرحى لأن الأيام قد فرحت من أجلنا . حدثتنى نفسى بالشك الذى يخامر قلبك ، والشك فى الحب إثم يا حبيبتى . عن قريب تصيرين سيدة هذه الأملاك الواسعة التى ينيرها ذلك القمر الفضى ، وربة هذا القصر المضاهى قصور الملوك ، تجرك خيولى المطهمة فى المتنزهات وتذهب بك مركباتى الجميلة إلى المراقص والملاهى . ابتسمى يا حبيبتى كما يبتسم الذهب فى خزائنى ، وارمقينى كما ترمقنى جواهر والدى . اسمعى

يا حبيبتى فقد أبى قلبى ألا يسكب أمامك مخبآته . أمامنا سنة العسل .. سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطـئ بحيرات سويسرا ، وفى متنزهات إيطاليا ، وقرب قصور النيل ، وتحت أغصان أرز لبنان . سوف تلتقين بالأميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك . كل ذلك لك منى ، فهلَّا رضيتِ ! آه ما أحلى ابتسامتك تحاكى ابتسام دهرى » .

وبعد قليل رأيتهما يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامهما كما تدوس قدم الغنى قلب الفقير .

غابا عن بصرى وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . أفكر بالمال مصدر شرور الإنسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظللت تائهاً فى مسارح هذه الأفكار حتى لمحت شبحين مرا من أمامى وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ الفلاحين فى المزارع . وبعد هنيهة من سكينة مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدور : «كفكفـى الدمع يا حبيبتى . إن المحبة التى شاءت ففتحت أعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد . كفكفى الدمع وتعزى لأننا تحالفنا على دين الحب ، ومن أجل الحب العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لى من مصارعة الأيام حتى أظفر بغنيمة تليق بأن أضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر . إن المحبة يا حبيبتى — وهى الله — تقتبل منا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهى تكافئنا عليها بقدر ما نستحق . أودعك يا حبيبتى فأنا راحل قبل أن يغيب القمر » .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات أنفاس ملتهبة . صوت عذراء لطيفة أودعته كل ما فى جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول « الوداع يا حبيبى » .

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبنى أيدى الشفقة وتتساهمنى أسرار هذا الكون الغريب .

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة ، وتأملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لا حد له ولا نهاية .. شيئاً لا يشترى بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء . شيئاً لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزهات إيطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيا فى الربيع ويثمر فى الصيف .. وجدت فيها المحبة .

رؤيا

هناك فى وسط الحقل على ضفة جدول بلورى رأيت قفصاً حبكت ضلوعه يد ماهرة . وفى إحدى زوايا القفص عصفور ميت ، وفى زاوية أخرى جرن جف ماؤه وجرن نفدت بذوره .

فوقفت وقد امتلكتنى السكينة ، وأصغيت صاغراً كأن فى الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب . وتأملت فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجارى المياه وغالبه جوعا وهو فى وسط الحقول التى هى مهد الحياة ، كغنى أقفلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعا بين الذهب .

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكل إنسان شفافا ، وتحول الطائر الميت إلى قلب بشرى فيه جرح عميق يقطر دما قرمزيا ، وقد حاكت جوانب الجرح شفتى امرأة حزينة .

ثم سمعت صوتاً خارجا من الجرح مع قطرات الدماء قائلا :

« أنا هو القلب البشرى أسير المادة ، وقتيل شرائع الإنسان الترابى فى وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة أسرت فى قفص الشرائع التى سنها الإنسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدى المحبة مت مهملا ، لأن ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرما علىّ كل ما يشوقنى . صار كل ما يشوقنى بعرف الإنسان عاراً ، وجميع ما أشتهيه

أصبح فى قضائه مذلة .

أنا القلب البشرى قد حبست فى ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت فى زوايا غى المدينة فقضيت ، ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهى تبتسم .

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح ، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئاً و لم أسمع صوتاً فرجعت لحقيقتى .

الجمـــال

« أن الجمال دين الحكماء »

شاكر هنرى

يا أيها الذين حاروا فى سبيل الأديان المتشعبة ، وهاموا فى أودية الاعتقادات المتباينة ، فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ، ومسارج النكران أسلم من معاقل الأتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً ، فهو الظاهر فى كمال المخلوقات ، البادى فى نتائج المعقولات . انبذوا الأُلَى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل ، وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ، ومنبع محبتكم السعادة ، ثم توبوا إليه فهو المقرب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم ، والمدرب أنفسكم فى مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا أيها الذين ضاعوا فى ليل التقولات ، وغرقوا فى لجج الأوهام ، إن فى الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونورا باهرا يقيكم ظلمة

البطل . تأملوا فى يقظة الربيع ومجىء الصبح ، إن الجمال نصيب المتأملين .

أصغوا لأنغام الطيور ، وحفيف الأغصان ، وخرير الجدول .. إن الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمة الشيخ .. إن الجمال فتنة الناظرين .

تشببوا بنرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم .. إن الجمال يتمجد بالمتشببين . سبحوا لغصن القد ، وليل الشعر ، وعاج العنق .. إن الجمال يسر بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلا للحسن ، وقدسوا القلب مذبحاً للحب .. إن الجمال يجازى المتعبدين .

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال ، وافرحوا إذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبرى

« هنا رفات من كتب اسمه بماء »

جان كيتس

أهكذا تمر بنا الليالى ؟ أهكذا نندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذا تطوينا الأجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم نخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟

أينطفئ هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه الأمانى ؟

أيهدم الموت كل ما نبنيه ويذرى الهواء كل ما نقوله ويخفى الظل كل ما نفعله ؟ أهذه هى الحياة ؟ هل هى ماض قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضى ، ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مر وصار حاضراً أو ماضياً ؟ أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن !

لا لعمرى فحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداؤها فى الرحم ولن يكون منتهاها فى اللحد . وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية. هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى ندعوها الموت المخيف ، حلم ولكن ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله .

فالأثير يجعل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصى كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا وتعيد على مسمع الأرواح السابحة فى فضاء اللانهاية كل أنشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك فى العالم الآتى سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التى نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط . الضلال الذى ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر فى الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم .

الأتعاب لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الأرزاء التى نحتملها ستكون إكليلا لفخرنا .

هذا ولو علم « كيتس » ذلك البلبل الصداح أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال فى قلوب البشر لقال : « احفروا على لوح قبرى — هنا بقايا من كُتِب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار » .

بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعاً لطيفاً ، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبار يهزأ بعاديات الليالى .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامى استأصله الدهر من ذاك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكى مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه وبصوت يشبه الصدى الذى تردده خلايا الأودية البعيدة قال : « هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتى . وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك ، وقد دكت ولم يبق منها سوى أثر يحدث الأمم بمجد صرفت الحياة لتعميمه ، وعز استخدمت الضعفاء لتعظيمه . تأملى يا محبوبتى فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الأجيال حكمة رأيتها ، وأضاع النسيان ملكا رفعته ، ولم يبق لى سوى دقائق المحبة التى أولدها جمالك ، ونتائج الجمال الذى أحياه حبك . بنيت هيكلا بين أضلعى للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات . صرفت العمر مستفسراً ظواهر الأشياء مستنطقاً أعمال المادة ، فقال الإنسان « ما أحكمه ملكا : » وقالت الملائكة «ما أصغره حكيما : » ثم رأيتك يامحبوبتى وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ، ففرحت الملائكة أما الإنسان

فلم ينتبه .. كانت أيام ملكى كالحواجز بين نفسى الظمآنة والروح الجميل المستقر فى الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط ، حاسباً كل شىء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس ، فخافتنى القبائل . ولما أنارتنى المحبة احتُقرت حتى من شعبى ، ولكن عندما جاء الموت أودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتى إلى الله » .

وبعد سكينة قال الخيال الثانى : « مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب ، كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطاها قوة وحكمة . » .

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات فى تلك الأنحاء : « لا تحفظ الأبدية إلا المحبة لأنها مثلها » ..

رؤيا

أرفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس (س . ل)
جوابا على رسالة أكرمتني بها

مشى الشاب أمامي فاتبعت مسيره ، حتى إذا بلغنا حقلا بعيداً وقفت متأملا الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء ، والأشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاء أوراقها الغضة ، فقلت أين نحن أيها الشباب؟ قال : فى حقول الحيرة فانتبه . قلت لنرجع ! لأن وحشة المكان تخيفنى ومرأى النجوم والأشجار العارية يحزن نفسى . قال : اصبر ، فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فإذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغربا : من هذه ؟ قال : هى مليومين ابنة جوبيتر وربة الروايات المحزنة [1] قلت : وماذا تبتغى الأحزان منى ، وأنت بجانبى أيها الشاب المفرح ؟ قال : جاءت

---

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات « ميوز » ، وكانت كل منهن توحى إلى مريدها بحسب محبته لها وأهليته لعطاياها . وهذه اسماؤهن : « ميليومين » ربة الروايات المحزنة . « بولمينا » ربة الشعر والغناء . « ثاليا » ربه الشعر الهزلى . « كاليوب » ربة الفصاحة والشعر الحماسى . «أراتو » ربة الموشحات والغزل . « ترسكورى » ربة الرقص . « أورانيا » زبة علم الفلك . « كليو » ربة التاريخ . « أوترپى » ربة فن الموسيقى .

لتريك الأرض وأحزانها ، من لا يرى الأحزان لا يرى الفرح . ووضعت الحورية يدها على عينى ، ولما رفعتها رأيتنى منفصلا عن شبابى مجرداً من ثوب المادة ، فقلت : أين الشباب يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبنى بل ضمتنى بجناحيها وطارت بى إلى قمة جبل عال ، فرأيت الأرض وما فيها منبسطة أمامى كالصفحة ، وأسرار سكانها ظاهرة لعينى كالخطوط ، فوقفت متهيباً بجانب الحورية متأملا خفايا الإنسان ، مستفسرا رموز الحياة . رأيت وليتنى لم أر . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء ، والإنسان بينهما فى حيرة تميل به نحو الآمال تارة والقنوط أخرى . رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشرى . هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والإطراء ، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح . رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقة متشبثة بأذيال ابن آدم ، ثم رأيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكى من أجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والإنسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهى نافرة عنه غضبى عليه لأنه لم يسمعها عندما نادته فى الشوارع على رؤوس الأشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم إلى السماء وقلوبهم مطمورة فى قبور المطامع ، رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم ويقتربون بآمال نزقهم ، وألوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء ، والأطباء يلعبون بأرواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش

المجد ، ويوسد حاضره بساط السعة ، ويمد لمستقبله فراش الفخامة . رأيت الفقراء والمساكين يزرعون ، والأغنياء الأقوياء يحصدون ويأكلون ، والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل ، وحراس النور غرقى فى كرى التوانى . رأيت المرأة كالقيثارة فى يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه أنغاما لا ترضيه ، رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث . لكنى رأيت كتائب قد انحدرت لأنها قليلة غير متحدة . رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها فى الشوارع وأمام الأبواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية . رأيت الدين مدفوناً طى الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأيت الناس تلبس الصبر ثوب الجبانة ، وتعطى التجلد لقب التوانى ، ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفل على موائد الآداب يدعى والمدعو إليه صامتاً . رأيت المال بين أيدى المبذر شبكة شروره ، وبين أيدى البخيل مجلبة لمقت الناس ، وبين أيدى الحكيم لم أر مالا .

عندما رأيت كل هذه الأشياء صرخت متألما من هذا المنظر : « أهذه هى الأرض يا ابنة الآلهة ؟ أهذا هو الإنسان ؟ فأجابت بسكينة جارحة : « هذه طريق النفس المفروشة شوكا وقطربا . هذا ظل الإنسان ، هذا هو الليل وسيجىء الصباح ، ثم وضعت يدها على عينى ، ولما رفعتها وجدتنى وشبابى سائراً على مهل ، والأمل يركض أمامى .

الأمس واليوم

مشى الموسر فى حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت حتى بلغ بحيرة تسابقت فى صنعها أيدى الإنسان ، وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت ، فجلس هناك ينظر آنا إلى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الأفكار من مخيلة العاشق ، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت أمام عينيه صفحات كتبها الماضى فى رواية حياته ، فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الإنسان ، واللهفة تعيد إلى قلبه رسوم أيام نسجتها الآلهة حتى أبت لوعته إلا الكلام ، فقال :

« كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابى المخضرة ، وأفرح بالحياة وأنفخ فى شبابتى معلناً غبطتى . وها أنا اليوم أسير المطامع يقودنى المال إلى المال ، والمال إلى الانهماك ، والانهماك إلى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً وكالفراش متنقلا ، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامى فى تلك الحقول . وها أنا الآن سجين عادات الاجتماع أتصنع بملابسى وعلى مائدتى وبكل أعمالى من أجل إرضاء البشر وشرائعهم . كنت أود لو أنى خلقت لأتمتع بمسرات

الوجود ، ولكنى أرانى اليوم متعباً بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميتها . أين السهول الواسعة ؟ أين السواقى المترنمة ؟ أين الهواء النقى ؟ أين مجد الطبيعة ؟ أين ألوهيتى ؟ قد ضيعت كل ذلك و لم يبق لى غير ذهب أحبه فيستهزىء بى ، وعبيد كثرتهم فقل سرورى ، وصرح رفعته ليهدم غبطتى . كنت وابنة البدو نسير والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا ، واليوم أصبحت بين اللواتى يمشين ممدودات الأعناق غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالأساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان نشترك بإنشاد الأغانى ، نقتسم ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر ، أمشى فى الشوارع فتنفتح على عيون البغض ويشار إلى بأصابع الحسد . وإن ذهبت إلى المتنزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة . بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة واليوم سُلِبتهما . بالأمس كنت غنيا بسعادتى واليوم أصبحت فقيراً بمالى ، وبالأمس كنت ونعاجى مثل ملك رؤوف ورعية واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم .. ما كنت أحسب أن المال يطمس عين نفسى ويقودها إلى مغائر الجهل ، و لم أدر ما يحسبه الناس مجداً كان واحر قلباه جحيما .. » .

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوها مرددا : « أهذا هو المال ؟ أهذا الإله الذى صرت كاهنه ؟ أهذا ما نبتاع بالحياة من يبيعنى فكراً جميلا بقنطار من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة ؟ من يعطبنى عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائنى ؟ » .

ولما وصل إلى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة أرميا إلى أورشليم ، وأومأ بيده نحوها كأنه يرثيها وقال بصوت عال : « أيها الشعب السالك فى الظلمة ، الجالس فى ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضى بالباطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمى الثمار والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركا بستان الحياة ؟ لماذا ترتدى الأطمار البالية تاركا ثوب الدمقس ؟ قد انطفأ سراج الحكمة فاسقِهِ زيتاً ، وخرّب ابن السبيل كَرْم السعادة فاحرسه ، وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه ! » فى تلك الدقيقة وقف أمام الغنى فقير ومد يده متسولا ، فنظر إليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان ، وانبسطت سحنته المنقبّضة ، وانبعث من عينيه نور لطيف . كان بالأمس الذى رثاه بقرب البحيرة قد مر مسلما فاقترب من المستعطى وقبله قبلة المحبة والمساواة ، وملأ يده ذهباً ، وقال والرأفة تسيل من كلماته : « خذ يا أخى الآن ، وعد غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم » . فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيْدَ المطر وراح مسرعا . حينئذ دخل الموسر إلى قصره قائلا : كل شيء حسن فى الحياة حتى المال لأنه يعلم الإنسان أمثولة . إنما المال كالأرغن يُسمع من لا يُحسن الضرب عليه أنغاما لاترضيه . المال كالحب يميت من يضن به ويحيى واهبه .

رحماك يا نفس رحماك

حتى مَ تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي ؟ إلى متى تضجين وليس لدى سوى كلام بشرى أصور به أحلامك ؟

انظرى يا نفسي . فقد أنفقتُ عمرى مصغياً لتعاليمك . تـأملى يامعذبتى فقد أتلفت جسمى متبعاً خطواتك .

كان قلبى مليكى فصار الآن عبدك ، وكان صبرى مؤنسى فغدا بك عذولى ، كان الشاب نديمى فأصبح اليوم لائمى ، وهذا كل ما أوتيته من الآلهة فمم تستزيدين وبم تطمعين ؟

قد أنكرت ذاتى ، وتركت ملاذ حياتى ، وغادرت مجد عمرى و لم يبق لى سواك ، فاقضى على بالعدل فالعدل مجدك ، أو استدعى الموت واعتقى من الأسر معناك .

رحماك يا نفس فقد حملتنى من الحب مالا أطيقه . أنت والحب قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق . وهل يطول عُراك بين قـوى وضعيف ؟ رحماك يانفس فقد أريتنى السعادة عن بعد شاسع .. أنت والسعادة على جبل عال ، وأنا والشقاء فى أعماق الوادى ، وهل يتم لقاء علو ووطوءة ؟

رحماك يانفس . فقد أبنت لى الجمال وأخفيته . أنت والجمال فى لنور وأنا والجهل فى ظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟

أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو فى الحياة .

أنت تسيرين نحو الأبدية مسرعة وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء ، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يا نفس منتهى التعاسة .

أنت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط إلى تحت بجاذبية الأرض ، فلا أنت تعزينه ولا هو يهنئك ، وهذه هى البغضاء .

أنت يانفس غنية بحكمتك وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا أنت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا أقصى الشقاء .

أنت تذهبين فى سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق ، وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماك يا نفس رحماك .

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعا على شمال ، مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادى قاديشا[1] ، جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الأرياح خطوطاً تمحوها الأرياح وتتلاعب بها العواصف ، مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة .

اختبأ الإنسان فى منازله ، والحيوان فى مرابضه ، وسكنت حركة كل ذى نسمة حية ، ولم يبق غير برد قارس ، وزمهرير هائج ، وليل أسود مخيف ، وموت قوى مريع .

وكان فى منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة أمام موقد تنسج الصوف رداء ، وبقربها وحيدها ينظر تارة إلى أشعة النار وطوراً إلى وجه أمه الهادىء . فى تلك الساعة عصفت الأرياح بشدة وهزت أركان ذلك البيت ، فذعر الصبى واقترب من أمه محتمياً بحنونها من غضب العناصر ، فضمته إلى صدرها وقبعته ، ثم أجلسته على ركبتيها وقالت : « لا تجزع يا ابنى

(١) وادى قاديشا أى وادى القديسين ، سمى بهذا الاسم إذ كان ملجأ الزاهدين ومأوى النساك الهاربين من شقاء العالم وضجة الاجتماع ، حيث كانوا يجدون الكهوف المخروقة بيد الطبيعة ، والسكينة المالكة تلك الأماكن ، وهو واد عميق كثيراً ما ترغب الشمس فى أن تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمقه واتساعه . وإذ كأنه جرح بليغ فى صدر لبنان خرقه ناب الدهر غدراً بعد أن كان صديقاً صدوقا .

فالطبيعة تريد أن تعظ الإنسان مظهرة عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه . لاتخف يا ولدى فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والأرياح العاصفة روح قدوس كلى عالم بما تحتاجه الحقول والآكام . من وراء كل شيء كوة ناظرة إلى حقارة الإنسان بعين الشفقة والرحمة . لاتجزع يافلذة كبدى فالطبيعة التى ابتسمت فى الربيع وضحكت فى الصيف وتأوهت فى الخريف تريد أن تبكينى الآن ، ومن دموعها الباردة تستقى الحياة الرابضة تحت أطباق الثرى . نم ياولدى ففى الغد تستيقظ وترى السماء صافية الأديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدى النفس ثوب الطهر بعد مصارعة الموت . نم يا وحيدى فوالدك ناظر الآن إلينا من مسارح الأبدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر النفوس الخالدة . نم يا حبيبى فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف نجنى الأزهار الجميلة عندما يجيء نيسان ، كذا يا ابنى لا يستثمر المحبة إلا بعد بعاد أليم ، وصبر مر وقنوط متلف . نم يا صغيرى فسوف تأتى الأحلام العذبة إلى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد » .

ونظر الصبى إلى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال : « لقد أثقل أجفانى الكرى يا أماه وأخاف أن أنام قبل تلاوة الصلاة . فعانقته الأم الحنونة ونظرت من وراء الدموع . إلى وجهه الملائكى ثم قالت : « قل معى يا ولدى أشفق يا رب على الفقراء وارحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بأيديك . انظر إلى اليتامى النائمين فى الأكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم . اسمع يا رب نداء الأرامل القائمات فى الشوارع بين مخالب الموت وأظافر البرد.امدد يدك يا رب إلى قلب الغنى

وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يا رب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب فى هذا الليل الظلوم ، واهد الغرباء إلى المآوى الدافئة وارحم غربتهم . انظر يا رب إلى العصافير الصغيرة ، واحفظ بيمينك الأشجار الخائفة من قساوة الرياح .. ليكن هذا يا رب » .

ولما عانق الكرى نفس الصبى مددته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ، ثم رجعت وجلست أمام الموقد تنسج له الصوف رداء .

الدهر والأمة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسل بين الصخور كأسلاك فضية ، جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعى الأعشاب اليابسة بين الأشواك الغضة ـــ صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ ما آتى الآتى على صفحات الجو ، وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس ،، وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهدا .

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابى تلتف برداء الظل ، وقف أمام الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه ، حاملا بيمينه منجلا سنيناً وقال بصوت يحاكى هدير الأمواج : « سلام على سوريا » .

فوقفت الفتاة مذعورة ، وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : « ماذا تبتغى الآن منى أيها الدهر ؟ » .

ثم أومأت نحو أغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الأودية .

هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها ؟ .

هذه هى المسارح التى أجد بها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق . كانت نعاجى ترتعى رؤوس الأزهار وتدر لبناً ذكياً ، فها هى الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة الفناء .

اتق الله يادهر وانصرف عنى ، فقد كرهتنى الحياة ذكرى مظالمك ، وحببت إلىّ الموت قساوة منجلك .

اتركنى ووحدتى أرشف الدمع شرابا ، وأنتشق الحزن نسيما ، واذهَبْ يادهر إلى الغرب حيث القوم فى عرس الحياة وعيدها ، ودعنى أنتحب فى مآتم أنت عاقدتها » .

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله على أثوابه ، وقال :

« ما أخذت منك يا سوريا إلا بعض عطاياى ، وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً أرد ، ووفيا أرجع . واعلمى أن لأخواتك الأمم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك . أنا والعدل أقنومان لذات واحدة ، فلا يجمل بى سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك ، ولست قادراً على تسويتكن فى محبتى لأن المحبة لا تنقسم إلا على السواء . لك يا سوريا أسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهن قطيع يشابه قطيعك ، ومرعى نظير مرعاك . إن ماتدعينه انحطاطاً يا سوريا أدعوه نوما واجبا يعقبه النشاط والعمل . فالزهرة لا تعود إلى الحياة إلا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق » .

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلا : «هذى يدى يا ابنة الأنبياء » . فأخذت يده وهى تنظر إليه من وراء الدمع وقالت : « الوداع أيها الدهر الوداع » فأجابها . « إلى اللقاء يا سوريا إلى اللقاء » .

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفى البرق ، فنادت الصبية أغنامها ومشت مرددة : « هل من لقاء يا ترى هل من لقاء ؟ » .

أمام عرش الجمال

هربت من الاجتماع وهمت فى ذاك الوادى الوسيع متبعاً مجارى الجدول تارة ومصغياً إلى محاورات العصافير طوراً ، حتى بلغت مكاناً حمته الأغصان من نظرات الشمس فجلست أسامر وحدتى وأناجى نفسى .. نفس ظامئة رأت كل ما يرى سرابا ، وكل مالا يرى شرابا .

ولما انطلقت عاقلتى من محبس المادة إلى فضاء ، التفت فإذا بفتاة واقفة على مقربة منى . حورية لم تتخذ من الحلى والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها ، وإكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبى .. إذ علِمَتْ من نظراتى أننى صرت مسلوب الفجأة والحيرة ، قالت : « أنا ابنة الأحراج فلا تجزع » . قلت وقد زدت حلاوة صوتها بعض رمقى : « وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش ؟ قولى لى بعيشك من أنت ومن أين أتيت ؟» فقالت وقد جلست على الأعشاب : « أنا رمز الطبيعة . أنا العذراء التى عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل فى بعلبك وافقا وجبيل . قلت « تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادى ساوت أديم الأرض ولم يبق من آثار آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة فى بطون الكتب » قالت « بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم . وبعضهم يحيون بألوهية أزلية أبدية . أما ألوهيتى فهى مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك ... جمال هو الطبيعة بأسرها .. جمال

كان بدء سعادة الراعى بين الربى والقروى بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاة إلى عرش حقيقة لا تجرح » قلت ودقات قلبي تقول مالا يعرفه اللسان: « إن الجمال قوة مخيفة رهيبة » . فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأزهار وفى نظرها أسرار الحياة : « أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهى منبع الأمن . تخافون الطبيعة وهى مرقد الراحة ، وتخافون إله الآلهه وتعزون إليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً » .

وبعد سكينة مازجتها الأحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته » . قالت : « هو ما كان بنفسك جاذب إليه .. هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ .. هو ما شعرت عند ملقاه بأياد ممدودة من أعماقك لضمه إلى أعماقك .. هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة .. هو ألفة بين الحزن والفرح .. هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولا وتسمعه صامتاً .. هو قوة تبتدئ فى قدس أقداس ذاتك وتنتهى فى ماوراء تخيلاتك ..»

واقتربت ابنة الأحراج منى ووضعت يدها المعطرة على عينى ، ولما رفعتها رأيتنى وحيداً فى ذلك الوادى ، فرجعت ونفسى مرددة : « إن الجمال هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ » .

زيارة الحكمة

فى هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعى ، ونظرت إلى نظرة الأم الحنون ومسحت دموعى وقالت : « سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك أمامى فأملأه نوراً . سلنى فأريك سبيل الحق » فقلت : « من أنا أيتها الحكمة ، وكيف سرت إلى هذا المكان المخيف ؟ .. ما هذه الأمانى العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الأفكار التى تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المنثور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة المفرحة ، المعانقة روحى ، المساورة قلبى ؟ ما هذه العيون المحدقة بى ، الناظرة أعماق المنصرفة عن آلامى ؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامى ، المترنمة بصغرى ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بأميالى ، المستهزىء بعواطفى ، الناسى أعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطء الغد ؟ ما هذا العالم السائر بى إلى حيث لا أدرى ، الواقف معى موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض الفاغرة فاها لابتلاع الأجسام المقرحة صدرها لسكنى المطامع ؟ ما هذا الإنسان الراضى بمحبة السعادة ودون وصالها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشارى دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والأحلام تناديه ، السائر مع سواقى الجهالة إلى خليج الظلمة ؟ ما هذه الأشياء أيتها الحكمة ؟ ... !

فقالت : « أنت تريد أيها البَشَرى أن ترى هذا العالم بعين إلٰه ، وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتى بفكرة بشرية وهذا منتهى الحماقة . اذهب إلى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور ، والنسر ينقض على الفريسة . ادخل إلى بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً بأشعة النار ، والوالـدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ، ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها . كل ما تراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والأفكار الجميلة هى أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذى تحوكه هو الواصل بينك وبين إخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هى البذور التى ألقاها الماضى فى حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل ...

إن هذا الشباب المتلاعب بأميالك هو هو الفاتح باب قلبك لدخول النور . إن هذه الأرض الفاغرة فاهاهى التى تخلص نفسك من عبودية جسدك . إن هذا العالم السائر بك هو قلبك ، فقلبك هو كل ما تظنه عالماً . إن هذا الإنسان الذى تراه جاهلا وصغيراً هو الذى جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن ، والمعرفة من الظلمة .. ».

ووضعت الحكمة يدها على جبهتى الملتهبة وقالت :

« سر إلى الأمام ولا تقف قط فالأمام هو الكمال ، سر ولا تخش أشواك السبيل فهى لا تستطيع إلا الدماء الفاسدة » .

حكاية صديق

١

عرفته فتى ضائعاً فى مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شبيبتـــه ، مستميتاً فى إدراك غرض أمياله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق إلى لجة الشهوات . عرفته فى تلك القرية صبياً شرساً يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها ، ويسحق برجليه تيجان الأزهار ويبيد محاسنها . وعرفته فى المدرسة يافعاً بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرسة ، عدواً للسكينة . وعرفته فى المدينة شاباً يتاجر بشرف أبيه فى سوق الخسائر ، ويبذل أمواله فى نوادى التهتك ، ويعطى عاقلته إلى ابنة الكرمة .

ولكنى كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمازجها الإشفاق . أحبه لأن منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة بل كانت مآتى نفس ضعيفة قانطة . النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود إليها مريدة ، وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالا تملأ الأجفان فتغمضها وتعميها .. تعميها إلى أمد بعيد فى أكثر المواطن .

أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له ، لأننى رأيت حمامة ضميره تغالب نشر سيئاته ، فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بخيانتها .

الضمير قاض عادل ضعيف والضعف واقف فى سبيل تنفيذ أحكامه .

قلت أحببته والمحبة تأتى بأشكال مختلفة ، ففى الحكمة آناً والعدل آونة ، والأمل أحرى فمحبتى له كانت أملى باستظهار نور شمسه الوضعى على ظلمة متاعبها العرضية . على أننى كنت جاهلا أنَّى وأين تتبدل الأدرانُ بنقاوة والشراسةُ بوداعة ، والطيشُ بحكمة ، والإنسان لا يدرى كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة إلا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف تبتسم الأزهار إلا بعد مجيء الصباح .

٢

مرت الآيات آخذة بأعناق الليالى . وأنا أذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتنهدات تجرح القلب وتدمى حتى وافانى بالأمس كتاب منه قال فيه :

ـــ تعال إلىّ يا صديقى فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسر قلبك لقاؤه ، وتطيب نفسك بمعرفته ..

قلت : ويحى ! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخـر على شاكلته ، أوَ لم يكن وحده أمثولة كافية لتعريف آيات الضلال ؟ وهل يروم الآن تذليل تلك الأمثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتنى حرف من كتاب المادة ؟ ثم قلت : « أذهب فالنفس تجنى من العوسج تيناً بحكمتها . والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته ..

ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً فى غرفته يقرأ كتابا

شعريا ، فحييته مستغربا وجود الكتاب بين يديه وقلت : « أين الصديق الجديد ؟ قال هو أنا يا خليل هو أنا » ، ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ، ونظر إلىّ وفى عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح تلك العيون التى طالما تأملتها و لم أر فيها غير العنف والقساوة أصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافا . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غيره : « إن ذاك الذى عرفته فى الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته فى الشبيبة قد مات ، وبموته ولدت أنا . أنا صديقك الجديد فخذ بيدى » . أخذت يده فشعرت عند الملامسة أن فى تلك اليد روحا لطيفاً يسرى مع دماء .. تلك اليد العتيفة قد صارت لينه . تلك الأصابع التى شابهت بالأمس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت — وليتنى أذكر غرابة ما قلت : « من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلا فقدسك ، أم أنت تمثل أمامى دوراً شعرياً » ؟ قال : « أى يا صديقى إن الروح قد حل علىّ ، وقدسنى الحب العظيم قد جعل قلبى مذبحاً طاهراً . هى المرأة ياخليلى .. المرأة التى ظننتها بالأمس ألعوبة الرجل ، قد أنقذتنى من ظلمة الجحيم وفتحت أمامى أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بى إلى أردن محبتها وعمدتنى . تلك التى احتقرت أختها بغباوتى قد رفعتنى إلى عرش المجد . تلك التى دنست رفيقتها بجهلى قد طهرتنى بعواطفها . تلك التى استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتنى بجمالها .. تلك التى أخرجت آدم الأول من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتنى إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى » .

فى تلك الدقيقة نظرت إليه فوجدت المدامع تتلألأ فى عينيه ،

والابتسام يراود شفتيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركا مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعته ورجعت مردداً قوله : « تلك التى أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه ، قد أعادتنى إلى تلك الجنة بحنوها وانقيادى ».

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان إلى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط إلى آخر ، ونحن لا نرى إلا ماوقف عثرة فى سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا . يتجلى لنا الجمال على كرسى مجده فنقترب منه ، وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسياً ثوب الوداعة فنخافه ونختبئ فى مغائر الظلمة ، أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور . والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلا وهو ألطف من أنفاس الأزهار وأرق من نسيمات لبنان . تقف الحكمة فى منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الأشهاد فنحسبها بطلا ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية إلى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مرسحاً للابتذال ومجالا لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجىء إلى المدينة ، وهناك نتكاثر على بعضنا بعضاً كقطيع رأى ذئبا خاطفاً . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قبلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشرى يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من

الجهاد لا نعي ولا نفهم ، وإذا ما سمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منه .

هكذا تمر الليالى ونحن غافلون،وتصافحنا الأيام ونحن خائفون من الليالى والأيام . نقترب من التراب والآلهة تنتمى إلينا ، ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا . فما أحب الحياة إلينا وما أبعدنا عن الحياة ..

يا خليلى الفقير

يا من ولدت على مهد الشقاء ، وربيت فى أحضان الذل ، وشببت فى منازل الاستبداد ، أنت الذى تأكل خبزك اليابس بالتنهد . وتشرب ماءك العكر ممزوجا بالدموع والعبرات .

يأيها الجندى المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ، ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب .

ويأيها الشاعر الذى يعيش غريباً فى وطنه ومجهولا بين معارفه ، ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق .

ويأيها السجين المطروح فى الظلمة من أجل ذنب صغير جسّمه غى الذين يقابلون الشر بالشر ، واستغربته عاقلة الألى يرومون الإصلاح بواسطة الفساد .

وأنتِ أيتها المسكينة التى وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب ، فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة .

أنتم يا أحبابى الضعفاء شهداء شرائع الإنسان . أنتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغى القوى وجور الحاكم وظلم الغنى وأنانية عبد الشهوات .

لاتقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة من وراء الغيوم ،

من وراء الأثير ، من وراء كل شيء .. قوة هى كل عدل و كل شفقة و كل حنو و كل محبة .

أنتم مثل أزهار نبتت فى الظل ، سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة .

أنتم نظير أشجار عاريه مثقلة بثلوج الشتاء ، سوف يأتى الربيع ويكسوكم أوراقا خضراء غضة .

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا أقبلكم يا إخوتى وأحتقر مضطهديكم .

مناحة فى الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق ، جلست فى وسط الحقل أناجى الطبيعة . فى تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالا بينما كان الإنسان مستتراً طى لحف الكرى تنتابه الأحلام تارة واليقظة أخرى ، كنت متوسداً الأعشاب أستفسر كل ما أرى عن حقيقة الجمال ، واستحكى ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فَصَلْتُ تصوراتى بينى وبين البشريات ، وأراحت تخيلاتى برقع المادة عن ذاتى المعنوية ، شعرت بنور روحى يقربنى من الطبيعة ويبين لى غوامض أسرارها ويفهمنى لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مر النسيم بين الأغصان متنهداً تنهد يتيم يائس ، فسألت مستفهما : « لماذا تتنهد يا أيها النسيم اللطيف ؟ » فأجاب . لأننى ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . إلى المدينة حيث تتعلق بأذيالى النقية مكروبات الأمراض ، وتتشبث بى أنفاس البشر السامة . من أجل ذلك ترانى حزينا .

ثم التفتّ نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : « لماذا البكاء يأيها الأزهار الجميلة ؟ » فرفعت واحدة منهن رأسها اللطيف وقالت : « نبكى لأن الإنسان سوف يأتى ويقطع أعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، وإذا ما جاء المساء

وذبلنا رمى بنا إلى الأقذار . كيف لا نبكى ويد الإنسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل » .

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسألته : « لماذا تنوح يأيها الجدول العذب ؟ فأجابنى : « لأننى سائر كرهاً إلى المدينة ، حيث الإنسان يحتقرنى ويستعيض عنى بعصير الكرمة ويستخدمنى لحمل أدرانه . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتى وزراً ، وطهارتى قذراً .

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغنى نشيدا محزناً يحاكى الندب ، فسألتها : « لماذا تندبين يأيتها الطيور الجميلة » فاقترب منى عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : « سوف يأتى ابن آدم حاملا آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودع بعضنا بغضاً لأننا لا ندرى من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا أينما سرنا » .

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الأشجار بأكاليل ذهبية ، وأنا أسأل ذاتى لماذا يهدم الإنسان ما تبنيه الطبيعة .

بين الكوخ والقصر

١

جاء المساء وشعشعت أنوار الكهربائية فى صرح الغنى ، فوقف الخدام على الأبواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجىء المدعوين . صدحت الموسيقى بأنغامها المطربة ، وتقاطر الأشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ، ويجرون أذيال العزة والفخر .

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الأعزاء .

وأصبحت تلك المقصورة روضة تمر بها نسيمات الموسيقى فتتمايل أزاهرها تيهاً وإعجابا .

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ماعز من الفاكهة وطاب من الألوان ، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة فى عقولهم حتى ألعبتهم .

جاء الصباح وفرق شمل أولئك الأشراف الأغنياء بعد أن اضناهم السهر ، وسرقت عاقلتهم الخمرة ، وأتعبهم الرقص ، وأذبلهم القصف ، وذهب كل إلى فراشه الناعم .

٢

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدى أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ، ففتح له ودخل وحيى مبتسما ، ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة إلى كبد الظلمة .

وبعد مرور الهزيع الأول من الليل قاموا بسكينة كلية ، واستسلموا لملك الرقاد .

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلا من الخبز والحليب ، ثم قبلهم وحمل على كتفه معولا ضخما وذهب إلى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة .

طلعت الشمس من وراء الجبل ، وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث ، وأولئك الأغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل فى صروحهم الشاهقة .

هذه مأساة الإنسان المستتبة على مرسح الدهر ، وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقل من تأمل وعقل .

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة فى تلك الحديقة ، وقال : « أبشركم وأهنىء البلاد . فالأميرة قد وضعت غلاما يحيى شرف عائلتى المجيدة ، ويكون لكم فخراً وملاذاً ووريثاً لما أبقته أجدادى العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالى » .

فصاحت تلك الجموع وملأت الفضاء بأهازيج الفرح ، متأهلة بمن سوف يربى على مهد الترف ، ويشب على منصة الإعزاز ، ويصير بعد ذلك حاكما مطلقاً برقاب العباد . ضابطاً بقوته أعنة الضعفاء ، حرياً باستخدام أجسادهم وإتلاف أرواحهم . من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوى ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد ، والملائكة تبكى على صغرهم ، كان فى بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم إلى صدرها الملتهب طفلا ملتفاً بأقمطة بالية .

صبية كتبت لها الأيام فقراً ، والفقر شقاء فأهملت من بنى الإنسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الأمير القوى ، وحيدة بعثت إليها الآلهة فى تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس فى الشوارع ، وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ، ونظرت فى عينيه اللامعتين وبكت بكاء مراً كأنها تريد أن تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يافلذة كبدى من عالم الأرواح ، أطمعا بمشاطرتى الحياة المرة ؟ أرحمة بضعفى ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الوسيع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ؟ ليس عندى يا وحيدى إلا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلا من الحليب ؟ وهل تلبس ذراعى العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت فى أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغبوطه ، وأنت يا ولدى ليس لك إلا تنهداتى وضعفى .

حينئذ ضمت الطفل إلى صدرها بشدة كأنها تريد أن تجعل الجسدين جسداً واحداً ، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت « ارفق بنا يا رب » .

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر ، دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير ، وانسكبت على جسدين هامدين ..

شعراء المهجر

لو تخيل الخليل أن الأوزان التى نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح ، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار ، لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الأوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض أن ماكتبناه سيصبح مورداً لأفكار عميقة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا ، لهراقا المحابر فى محاجر النسيان ، وحطما الأقلام بأيدى الإهمال .

ولو درت أرواح هو ميروس وفرجيل وأعمى المعرة وملتون أن الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله ، سيحط رحاله فى منازل الأغنياء ، لبعدت تلك الأرواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

ما أنا من المتعنتين ، لكن يعز على أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين ، ولست منفرداً فى وهدة الاستياء بل رأيتنى واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلا بالجاموس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وإن جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذُهُ أوقى .

فيا إلهة الشعر — يا أدانو — اغتفرى ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ، ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم .

ويا أرواح الشعراء الناظرة إلينا من أعالى عالم الخلود ، ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلىء أفكاركم وجواهر أنفسكم ، سوى أن عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل ، فجاء شعرنا ثقيلا ضخما كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار .

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون سامحونا ، فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات ، فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدى ولا تدرى بها النفوس .

تحت الشمس

« رأيت كل الأعمال التى عملت تحت
الشمس ، فإذا الكل باطل وقبض الريح »
(الجامعة)

ياروح سليمان السابحة فى فضاء عالم الأرواح ، يامن خلعت ثوب المادة الذى نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط ، فولد ضعفاً وقنوطاً فى سرى الأجسام .

أنت تعلمين الآن أن فى هذه الحياة معنى لايخفيه الموت ، ولكن أنَّى للبشر تلك المعرفة التى لا تدرك إلا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟ .

أنت تعلمين الآن أن الحياة ليست كقبض الريح ، وأن ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها ، وما برحنا نظنها حكمة باهرة وهى — أنت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفى الأمل .

أنت تعلمين الآن أن للحماقة والشر والظلم أسبابا جميلة ، ونحن لا نرى جمالاً إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنت تعلمين أن الحزن والفقر يطهران القلب البشرى ، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حريا بالوجود إلا اليسر والفرج .

أنت تعلمين الآن أن النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن

ما برحنا نردد كلامك الذى يدل على أن الإنسان ليس إلا ألعوبة فى يد القوة غير المعروفة .

أنت ندمت على بث روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ، ويميت الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك .

ياروح سليمان الساكنة فى عالم الخلود ، أوحى إلى محبى الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطأ غير مقصود .

نظرة إلى الآتى

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الإنسانية ؟ سمعت أصوات الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة فى معبد الجمال .. أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس .. القلب البشرى .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح .. صباح الحقيقة .

رأيت المدينة قد اندثرت و لم يبق من آثارها غير طلل بال ، تخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف ، وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار اليوم .

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون فى النـاى ، والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل .

رأيت الكهول يحصدون الزرع ، والنساء يحملن الأغمار ويترنمن بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرة .

(دمعة وابتسامة)

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوهة بإكليل من الزنبق ، ومنطقة من أوراق الأشجار الغضة .

رأيت الألفة مستحكمة بين الإنسان والمخلوقات ، فجماعات الطير والفراش تقترب منه آمنة ، وسرب الغزلان تنثنى نحو الغدير واثقة .

نظرت فلم أر فقيراً ولا ما يزيد عن الكفاف ، بل الفيت الإخاء والمساواة ، و لم أر طبيبا إذ كل غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ، و لم أر كاهناً لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم ، و لم أر محامياً لأن الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الألفة والوئام .

رأيت الإنسان قد علم أنه حجر زاوية المخلوقات ، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الأزهار ، وتعرف معنى أغانى الشحارير والبلابل .

من وراء جدران الحاضر .. على مرسح الأجيال الآتية رأيت الجمال عروساً والنفس عروسة ، والحياة كلها ليلة القدر .

ملكة الجمال

بلغت خرائب تدمر وقد أنهكني المسير ، فاستقبلت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنها أشلاء حرب هائلة . وصرت أتأمل بعظائم أجلها وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة ، شعرت بأن الأثير المحيط بي سيالا يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلا ، فصرت أجرعه محكوما وأحس بأياد خفيفة تتساهم عاقلتي وتثقف جسمي وتحل نفسي من سلاسلها ، ثم مادت الأرض واهتز الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها بشر قط ، مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين حولي ولا تلمس أرجلهن الأعشاب ، وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب ، ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . لما وصلت إلى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها أنوار بلون قوس القزح ، وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهن عن ذي قبل ، ونظرن إلى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فإذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليه ، فهبط إذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضاً واستقر

حول أقدامها بشكل هلال .

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تره عين إنسان ، وأسمع ما لم تعه أذن بشرى .

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ، ثم قالت وصوتها يهز نفسى مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عود ، ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحرى كأن للأشياء آذانا وأفئدة : « دعوتك أيها الإنسى وأنا ربة مسارح الخيال ، وحبوتك المثول أمامى وأنا مليكة غابة الأحلام ، فاسمع وصاياى وناد بها أمام البشر . قل إن مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبار فلن يدخله إلا من لبس ثياب العرس . قل هى جنة يحرسها أملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب . هى حقل تصورات أنهاره طبيعية كالخمر ، وأطياره تسبح كالملائكة ، وأزاهره فائحة العبير فلا يدوسه غير ابن الأحلام . خبّر الإنس بأنى وهبتهم كأساً يفعمه السرور فهرقوه بجهلهم ، فجاء ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفا وسكروا . قل لمن يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحى ، ونظرت أعينهم عرسى ، فأشعياً نظم الحكمة عقوداً بأسلاك محبتى ، ويوحنا روى رؤياه بلسانى ، ولم يسلك دانتى مراتع الأرواح بغير أدلتى ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكى أعمال الآلهة . قل إن للفكرة وطنا ، أسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وأن للتخيلات رسوماً كائنة فى سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعم رجاؤها بما

سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا » .

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية ، وقبلت شفتي الملتهبتين وقالت : « قل ومن لا يصرف الأيام على مرسح الأحلام كان عبد الأيام » .

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤيا . ثم مادت الأرض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتي هذه الكلمات : « من لا يصرف الأيام على مرسح الأحلام كان عبد الأيام » .

يالائمي

دعني يالائمي ووحدتي . أستحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ، ويوثق قلبك بحنو الأم ، ويربط فؤادك بعواطف الابن ، أن تتركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر إلى الغد ، فالغد يقضي علي بما يشاء .

محضتني النصح والنصح طيف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ، ويقودها إلى حيث الحياة جامدة كالتراب .

لي قلب صغير أريد أن أخرجه من ظلمة صدري وأحمله على كتفي متفحصاً أعماقه ، ومستحكياً أسراره ، فلا تترصده بالائمي بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع ، قبل أن يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عَقَدته الآلهة عندما ابتدعته من الجمال

والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل ، وتصاعدت أرواح الآس والمنثور ، وأنا اريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء ، فلا تعتقني يالائمي ولا تخفني بأسد الغاب ، وصل الوادي لأن نفسي لا تعرف الجزع ، ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .

دعني يالائمي ولا تعظني ، لأن المصائب فتحت بصيرتي ، والدموع جلت بصري ، والحزن علمني لغة القلوب .

اعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل على ، وتقيني العقاب إن كنت ذا برارة ، وتحرمني الثواب إن كنت من المجرمين.

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً أعلامه ، وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح ، فلا تردعني يالائمي ، بل دعني أسير ، فالطريق مفروشة بالورد والرياحين ، والهواء قد عطرته مجامر المسك .

اعتقني من حكاية المال وقصص المجد ، لأن نفسي غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الآلهة .

اعتقني من مآتي السياسة وأخبار السلطة ، لأن الأرض كلها وطني ، وجميع البشر مواطنيّ .

مناجاة

اين أنت الآن يا جميلتى ؟ أفى تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التى تحبك محبة الأطفال ثدى أمها . أم فى خدرك حيث أقمت للطهر مذبحاً وقفت عليه روحى وحشاشتى ، أم بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وأنت غنية بحكمة الآلهة ؟ .

أين أنت يارفيقة نفسى ؟ أفى الهيكل تصلين من أجلى ، أم فى الحقل تناجين الطبيعة مرتع إعجابك وأحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك ، وتملأين أياديهم بإحسانك ؟.

أنت فى كل مكان لأنك من روح الله . وفى كل زمان لأنك أقوى من الدهر . هل تذكرين ليالى جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة ، وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح ، وتذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهى مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ، هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعى احتباك ضفائرك ، وقد أسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمى منا بنا .. ؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتنى ثم قبلتنى قبلة مريمية ، علمت منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان .. قبلة كانت توطئة لتنهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه « الله » فى الطين فصار إنساناً . تلك

تنهيدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا ، وهناك ستبقى حتى نجتمع بها إلى الأبد . ثم قبلتنى وقبلتنى وقبلتنى ، وقلت والدمع يساعدك « إن للأجسام أعراضاً مجهولة فهى تفترق لشؤون عالمية وتتباعد . لمآرب دنيوية ، أما الأرواح فتظل فى قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير بها إلى الله . اذهب يا حبيبى ، لقد انتدبتك الحياة فأطعها ، فهى حسناء تسقى مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة ، أما أنا فلى من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك » .

أين أنت الآن يارفيقتى ؟ هل أنت ساهرة فى سكينة الليل نسيما أحمّله دقات قلبى وخفايا جوارحى كلما هب نحوك ؟ وأنت ناظرة رسم فتاك ؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه ، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس متفرحة بقربك ، والنواح أذبل أجفاننا كانت مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك .

أين أنت يا حبيبتى ؟ هل أنت سامعة من وراء البحار ندائى وانتحابى ، وناظرة ضعفى ومذلتى ، وعالمة بصبرى وتجلدى ؟ أوَليست فى الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضَرٍ متوجع ؟ أوَ لم تكن بين النفوس أسلاك خفية تحمل شكوى محب دنف ؟ .

أين أنت يا حياتى و لقد احتضنتنى الظلمة وغلبنى الأسى . ابتسمى فى الهواء فأنتعش : تنفسى فى الأثير فأحيى .

أين أنت يا حبيبتى ، أين أنت ؟ .

آه ما أعظم الحب ، وما أصغرنى !

المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً .. فتى قوى الجسم أضعفه الجوع فجلس فى منتصف الشارع ماداً يده نحو العابرين متسولا مستغيثاً بالمحسنين ، مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه .

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكَلَّ لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه ، فقام إذ ذاك وذهب إلى خارج المدينة وجلس بين الأشجار وبكى بكاء مراً ، ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه : « يا رب قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملا فطردت لرثاثة أثوابى . وطرقت باب المدرسة فمنعت لفراغ يدى ، ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومى فأبعدت لسوء طالعى ، وأخيراً سعيت متسولا فرآنى عبادك يا رب وقالوا هذا قوى نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التوانى والكسل . قد ولدتنى أمى بإرادتك يا رب وأنا كائن الآن بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عنى وأنا طالب باسمك ؟ . فى تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس ، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ، ثم اقتضب من الأغصان اليابسة نبوتاً ضخما وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلا : « طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة ساعدى . وسألت الخبز باسم المحبة فلم يسمعنى الإنسان ، فسأطلبه باسم الشر وأستزيد منه » .

مرت الأعوام والشاب يقطع الأعناق من أجل الحصول على النقود ، ويهدم هياكل الأرواح إن تصدت لمطامعه ، فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم ، ثم انتدبه الأمير وكيلا عنه فى تلك المدينة شأن الأمراء بانتقاء ممثليهم .

كذا يبتدع الإنسان من المسكين سفاحا باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلا بقساوته .

الرفيقة

أول نظرة ..

هى الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هى الشعلة الأولى التى تنير خلايا النفس . هى أول رنة سحرية على أول وترمن قيثارة القلب البشرى . هى آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالى ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان فى هذا العالم ، وتتيح سر الخلود فى العالم الآتى . هى نواة تطرحها عشتروت(١) من العلاء ، فتلقيها العيون فى حقل القلب فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس . أول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذى يرف على وجه القمر ومنه انبثقت السماء والأرض . أول نظرة من شريكة الحياة تحاكى قول الله « كن »

عشتروت إلهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان ، وهى التى يدعوها اليونان أفروديت والرومان ڤينوس

أول قبلة ..

هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب ، هى الحدبين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفهمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوى . هى عروة توثق غرابة الماضى ببهاء الآتى وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها . هى كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكا ، والوفاء تاجاً . هى ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهدا مستطيلا لذيذاً وأنة خفية عذبة ، هى بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحى والأحلام . هى ضم زهرة الشقيق إلى زهرة الجلنار ومـزج أنفاسهما لتوليد نفس ثالث ، وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقتها إلهة الحب فى حقل القلب البشرى ، فالقبلة الأولى تحاكى أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة .

القران

هٰهنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة وينشىء من معانى العمر سوراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالى . هٰهنا يزيح الشوق ستائر الأشكال عن معميات السنين الماضية ، ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزى لتوليد شراب برتقالى[1]

---

(١) اللون البرتقالى يتولد كيماوياً من الأحمر والأصفر .

يحاكى لون الشفق عند مجئ الفجر . هو تنافر روحين من التنافر ، واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة ، أولها نظرة وآخرها اللانهاية . هو انهمال غيث نقى من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة . فإذا كانت النظرة الأولى من وجه المحبوبة مثل نواة ألقتها المحبة فى حقل القلب ، والقبلة الأولى من شفتيها تشابه أول زهرة فى غصن الحياة ، فالقران بها يحاكى أول ثمرة من أول زهرة من أول نواة .

بيت السعادة

تعب قلبى فى داخلى فودعنى وذهب إلى بيت السعادة ، ولما بلغ ذلك الحرم الذى قدسته النفس وقف حائراً لأنه لم ير هناك ما طالما توهمه . لم ير قوة ولا مالا ، لا ولا سلطة . لم ير غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتهما الحكمة .

وخاطب قلبى ابنة المحبة قائلا : « أين القناعة أيتها المحبة ، فقد سمعت أنها تشاطركم سكنى هذا المكان ؟ » قالت : « ذهبت القناعة تكرز فى المدينة حيث المطامع ، فنحن لانحتاجها . السعادة لا تبتغى قناعة ، إنما السعادة شوق يعانقه الوصال ، والقناعة سلو يساوره النسيان . النفس الخالدة لاتقنع لأنها تروم الكمال ، والكمال هو اللانهاية » .

وخاطب قلبى فتى الجمال قائلاً : « أرنى سر المرأة أيها الجمال ، وأنرنى لأنك معرفة » . فقال « هى أنت أيها القلب البشرى ، وكيفما كنت وكانت . هى أنا وأينما حللت حلت . هى كالدين إذا لم يحرفه الجاهلون ، وكالبدر إذا لم تحجبه الغيوم ، وكالنسيم إذا لم تتعلق بأذياله أنفاس الفساد » .

واقترب قلبى من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : « أعطنى حكمة أحملها إلى البشر » فأجابت : « قل هى السعادة تبتدىء فى قدس أقداس النفس ولا تأتى من الخارج » .

مدينة الماضى

وقفت بى الحياة على سفح جبل الشباب وأومأت إلى الوراء ، فنظرت فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة فى صدر سهول تتموج فيها الخيالات والأبخرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها .

قلت : « ما هذه أيتها الحياة ؟ » قالت : « هى مدينة الماضى فتأمل ؟ » فتأملت ورأيت . معاهد أعمال جالسة كالجبابرة تحت أجنحة النوم . مساجد أقوال تحوم حولها صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الأمل . هياكل أديان أقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن أفكار مرتفعة نحو العلو كأنها أيدى المتسولين . شوارع أميال منبسطة انبساط النهر بين الربى . مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام ، أبراج أقدام بنتها الشجاعة فثلتها المخاوف . صروح أحلام زينتها الليالى وخربتها اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادى معارف أنارها العقل فأظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسح أعمار مثّلت عليها الحياة روايتها ثم جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضى فهى بعيدة قريبة .. منظورة محجوبة .

ومشت أمامى الحياة وقالت « اتبعنى فقد طال بنا الوقوف » قلت : « إلى اين أيتها الحياة » قالت : « إلى مدينة المستقبل » . قلت : « رفقاً

فقد أنهكنى المسير وكلمت أقدامى الصخور وهدت قواى العقبات »
قالت : « سر ! الوقوف جبانة ، والنظر إلى مدينة الماضى جهالة » .

اللقاء

عندما أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم ، تصاعدت من وادى النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من أشعة القمر . فمر من أمامها جوق أرواح سابحة فى الفضاء صارخة : « قدوس قدوس قدوس ! ابنة مصر مجدها ملء كل الأرض » .

وتصاعد من أعالى فم ميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفاً بأيادى الساروفيم ، وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الأرواح ومرت من أمامها هاتفة : « قدوس قدوس قدوس افتى لبنان مجده ملء كل الدهور » . .

لما أخذ المحب يد حبيبته ونظر إلى عينيها ، حملت الأرواح والأمواج هذه المناجاة إلى جميع الأقطار :

« ما أكمل بهاءك يا ابنة إيزيس ، وما أعظم حبى لك » .

« ما أجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت ، وما أكثر شوقى إليك » .

« محبتى نظير أهرامك ، فلا تهدمها الأجيال يا حبيبتى » .

« محبتى تحاكى أرزك ، فلن تغلبها العناصر يا حبيبتى » .

« حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ،

ويستفسروا رموزك يا حبيبتى » .

« عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبتى » .

« إن راحتك منبت خيرات غزيرة ، تملأ الأهراء يا حبيبتى » .

« إن ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة يا حبيبتى » .

« قصور النيل وهياكله تذيع مجدك ، وأبو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتى » .

« الأرز على صدرك وسام شرف أثيل ، والأبراج حولك تروى بطشك واقتدارك يا حبيبتى » .

« آه ما أميلح محبتك ، وماأحيلى الأمل المناط بارتقائك يا حبيبتى » .

« آه ما أكرمك خليلا ، وأوفاك حليلا ، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك .بعثتِ إلى بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أتحفتنى بالفارس فغلب ضعف قومى وحبوتنى (بالأديب) فأنهضهم وبالنجيب فأثملهم .. » .

« بعثت إليك بالبذور فصيرتها أزهاراً ، وبالأنصاب فجعلتها أشجاراً . فأنت حقل بكر يحيى الورد والسوسن ، ويرفع السرو والأرز .. » .

أرى بعينيك حزناً يا حبيبتى — أتحزنى وأنت بقربى ؟ » .

« لى ابناء رحلوا إلى ماوراء البحار ، وخلفونى حليف بكاء وأليف شوق » .

« ليت لى مايشابه حزنك ، وتنصرف عنى مخاوفى يا حبيبتى » .

« أتخافين يا ابنة النيل وأنت عزيزة الأمم ؟ » .

« أخاف من طاغية تقترب منى بحلاوة روغها ، وتمتلك أعنتى بقوة ساعديها » .

« إن حياة الأمم يا حبيبتى مثل حياة الأفراد . حياة يؤاخيها الأمل ، ويقارنها الخوف ، وتحف بها الأمانى ، ويرمقها القنوط » .

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عطراً ، فمسرت أجواق الأرواح منشدة : قدوس قدوس قدوس ! المحبة مجدها ملء السماء والأرض .

مخبآت الصدور

فى صرح فخيم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت ، جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها ، مثلما تتكيء زنبقة ذابلة على أوراقها ، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد أن يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة فى موكب الحرية .

مرت الساعات مرور أشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها . مستأمنة بانفرادها ولوعتها . حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها ، تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها ، وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

أيتها الأخت المحبوبة .

عندما يضيق القلب بأسراره وتتقرح الأجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبآت الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالحزين يا صديقتى يستعذب الشكوى يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فأنا أكتب إليك الآن لأننى أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوما بقوة ألوهيته ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعا بمرارة

جوعه غير راحم فاقة أمه وانكسارها .

اسمعى قصتى الموجعة يا أختى وابكى من أجلى ، لأن البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة كالإحسان لا تذهب سدى ، لأنها متصاعدة من أعماق نفس حية شاعرة .. شاء والدى وجمع بالقران بينى وبين رجل شريف غنى شأن كل والد غنى شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر ، وضم الشرف إلى الشرف هربا من ذل الأيام ، فكنت مع عواطفى وأحلامى ضحية على مذبح ذهب أحتقره ، وشرف موروث أكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التى إذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمر من الهاوية . أنا أعتبر بَعلى ، لأنه كريم الخلق شريف القلب ، يجهد النفس فى سبيل سعادتى ويبذل المال لرضاى ، لكننى وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوى دقيقة محبة حقيقية مقدسة . تلك المحبة التى تستصغر كل شىء وتبقى عظيمة . لا تسخرى بى يارفيقتى فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة — هذا القلب الخفوق — هذا الطائر السابح فى فضاء المحبة — هذا الإناء الطافح من خمرة الدهور المعدة لمراشف الأرواح .. هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والمسرة والأحزان ، فلا يقرأه إلا الرفيق الحقيقى ، نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وإلى الأبد .. نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وأميال القلب عندما وجدت أن خيول بَعلى المطهمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوى نظرة واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذى جاء هذه الحياة من أجلى وجئت من أجله ، ذلك الصابر على مضض البلوى وذل

التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بإرادة والدى ، والمسجون بلا إثم فى ظلمة العمر .. إياك يا صديقتى محاولة تعزيتى ، لأن لى فى مصائبى معزيا هو إدراكى قوة حبى ، ومعرفتى شرف شوقى وحنينى ، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب منى يوما فيوما لتقودنى إلى حيث أنتظر رفيق نفسى وألتقى به وأعانقه عناقا طويلا مقدساً . ولا تلومينى فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة ، خاضعة لأحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، أكرم بَعلى بعاقلتى ، وأعتبره بقلبى ، وأجله بنفسى ، ولا يمكننى أن أهبه كليتى لأن الله أعطاها إلى حبيبى قبل معرفتى حبيبى . شاءت السماء لحكمة خفية أن أصرف العمر مع رجل خلقت لغيره ، فأنا أنفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة ، ولكن إذا ما انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسى الجميل ونظرت إلى الماضى — وذاك الماضى هو هذا الآن .. نظرة الربيع إلى الشتاء ، وتأملت فى حياتى هذه مثلما يتأمل فى العقبات من بلغ قمة الجبل » .

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة . وحجبت وجهها بيديها . وبكت بكاء مراً كأن نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدس أسرارها إلى الورق . فأعطتها إلى دموع سخينة تجف بسرعة وتمتزج بأثير الطيف وموطن أنفاس المحبين وأرواح الأزهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت .. « هل تذكرين يا صديقتى ذلك الفتى ؟ هل تذكرين تلك الأشعة المنبعثة من عينيه ، وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكى صدى الوادى البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل فى الأشياء بنظرات

طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة . ثم يحنى رأسه ويتنهد كأنه يخاف أن يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ، وهل تذكرين أحلامه وعقائده ! هل تذكرين كل هذا الأشياء فى فتى يحسبه البشر من البشر ، ويحتقره والدى لأنه أسمى من المطامع الترابية وأشرف من أن يرث الشرف عن الجدود ؟ إى يا أختى أنت تعلمين أننى شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوه وترحمين أختاً ساهرة فى سكينة الليل المخيف لتكشف لك ستائر صدرها عن أسرار قلبها . أنت ترحمين لأن الحب قد زار قلبك » .

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى ، علها تجد فيه أحلاما ألطف من أحلام اليقظة ..

القوة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحتْ القلب ، وابتسمت بشفاه الأزهار فأسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فأنست الإنسان عذوبة كليماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الأجيال . موت ظلوم قبض بأظافره المحدودة على الأعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الأرزاق والأعمار . ليل قاتم أخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة هبت من مرابضها وقاتلت الإنسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة ما جمعه بالتأنى . زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخضت متوجعة و لم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كل ذلك والنفس الحزينه ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم . تتأمل بمقدرة الإنسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة وتتألم مع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى وبين دقائق الأثير ، وتتألم مع الولدات النائحات والأطفال الجائعين . تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتألم مع الذين رقدوا بالأمس مستأمنين فى منازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس

والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقاد تارة إلى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس فى آذان السكينة قائلة : إن وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الأرض بمكان البغض والحقد والشر فى القلب البشرى تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الإنسان بدمعه ودمه وأرزاقه .

أوقفتنى الذكرى ونكبة هذه الأمة تملأ الأسماع أنة وعويلا ، وصورت أمام عينى كل مامر على مرسح الأيام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الإنسان فى كل أدواره يقيم على صدر الأرض البروج والقصور والهياكل ، والأرض ترجعها إلى قلبها . رأيت الأشداء يشيدون المبانى القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً وأشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتلع بخشونة ما ألفته الأيادى المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والأشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلة دور حسناء مستغنية عن الحلى التى يصيغها ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى .

على أننى وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ، ألوهية الإنسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر ، ومثل

عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمبـاى وسان فرنسيسكو ، ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض مالها فلا نهاية لى .

منيتان

فى سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة ، واستقر على أعلى مئذنة فيها ، وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ، ورأى الأرواح المحمولة على أجنحة الأحلام ، والأجساد المحكومة بمفاعيـل الكرى .

ولما توارى القمر وراء الشفق ، وتوشحت المدينة بنقاب الخيال ، سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوى الغنى فدخل و لم تصده الحواجز ، ووقف جنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال : ابعد عنى أيها الحلم المخيف . اذهب أيها الخيال الشرير . كيف دخلت أيها السارق ، وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب فأنا رب البيت ، اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إربا .

حينئذ اقترب الموت وبصوت يحاكى الرعد قال : « أنا هو الموت فانتبه واعتبر ! » فأجاب القوى الموسر : « ماذا تريد منى الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنه أعمالى بعد ! ماذا تطلب من الأقوياء نظيرى ، اذهب إلى السقماء . اغرب عنى ولا ترنى أظافرك الجارحة

وشعرك المسدول كالأفاعي . رح فقد سئمت النظر إلى جناحيك الهائلين وجسدك البالى » وبعد سكينة مزعجة زاد « لا لا أيها الموت الرؤوف — لا تحفل بما قلته ؛ فالخوف يوحي ما يحرمه القلب — خذ مكيالا من ذهبي أو قبضة من أرواح عبيدى واتركنى وشأنى ... لى ياموت مع الحياة حساب لم أنهه ، ومع الناس مال لم أستوفه ، لى بين أمواج البحر مراكب لم تصل إلى الساحل ، وفى قلب الأرض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من هذه الأشياء واتركنى . لى جَوار كالصباح جمالاً فاختر منهن ما تريد . اسمع أيها الموت لى وحيد أحبه وهو عقدة آمالى ، خذه واتركنى . خذ ما تشاء خذ كل شيء واتركنى » .

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية ، وأخذ حقيقته وأعطاها للهواء .

سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله واقترب من سرير عليه فتى فى ربيع العمر ، وبعد أن تأمل فى وجهه الهادئ لمس عينيه فاستيقظ .ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت أودعه كل مافى نفسه من المحبة والشوق « ها أنذا أيها الموت الجميل .. اقتبل نفسى يا حقيقة أحلامى وموضوع آمالى ! ضمنى يا حبيب نفسى ، فأنت رحوم لا تتركنى ههنا . أنت رسول الآلهة . أنت يمين الحق فلا تتخل عنى . كم طلبتك و لم أجدك ، وكم ناديتك و لم تسمع .. قد سمعتنى الآن فلا تقابل شغفى بالصدود .. عانق نفسى يا حبيبى الموت » .

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتى الفتى وأخذ حقيقتة

ووضعها تحت جنحيه .

ولما حلق الموت فى الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ فى الهواء هذه الكلمات : « ولن يرجع إلى الأبدية إلا من جاء من الأبدية » .

على ملعب الدهر

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب لهى أسمى وأثمن من جبل ملأه المجد الذى يمنحه الضعيف المسكين للقوى الطامع .

من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الإنسان ، وفى ذاك الجبل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة . فى تلك الدقيقة تتحرر النفس من أعباء شرائع الإنسان المتباينة ، وفى ذاك الجبل تحبس وراء جدران الإهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية ابن الفارض ، وذاك الجبل كان القوة العمياء التى هدمت هياكل بعلبك ودكت مبانى تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل لهو أجل وأفضل من عمر يضيعه الإنسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الأنانية ، ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليه بجنحة القتم ويلحده طى طبقات التراب . ذاك يوم كان يوم العبر . ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر أنفقه نيرون فى سوق المظالم ، ووقفه قارون على مذبح المطامع ، وطمره دون جوان فى قبر الجسديات .

وهذه هي الحياة — تمثلها الليالى على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الأيام كأغنية ، وفى النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة ...

خليلى

لو علمت ، يا خليلى الفقير ، أن الفاقة التى تقضى عليك بالشقاء هى هى التى توحى إليك معرفة العدل وتبثك إدراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله . قلت : معرفة العدل لأن الغنى مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت : كنه الحياة ، لأن القوى منصرف عنها إلى المجد ، فافرح إذن بالعدل لأنك لسانه ، وبالحياة لأنك كتابها . وابتهج فأنت مصدر فضيلة عاضديك ، وعاضد فضيلة الآخرين بيدك .

ولو دريت يا حبيبى الحزين أن الأرزاء التى أصبحت مغلوبها ، هى تلك القوة التى تنير القلب وترفع النفس مـن دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها إرثا ، وبتأثيراتها مهذبا ، وعلمت أن الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وأن الحزن حلقة ذهبية تفصل بين الاستسلام لمآتى الحاضر والتعلل ببهجة الآتى ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة .

خليلى .. إن الفقر يطهر شرف النفس والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف والسرور يدملها ، لأن الإنسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلا للازدياد مثلما يفعل باسم الكتاب شراً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الإنسانية ما تأباه الإنسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلا من أرقام تدل على الأنانية ومحبة الإكثار ، وألفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لأنى نظرت فوجدت الألوهية ، وهى الذات المعنوية فى الإنسان ، لاتباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر . وتأملت فرأيت الغنى ينبذ ألوهيته ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

إن الساعة التى تصرفها أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل ، لهى رمز العائلة البشرية المستقبلة .. هى عنوان سعادة الأجيال الآتية . والحياة التى يصرفها المثرى بين الخزائن لهى حياة دنية تحاكى حياة الدود فى القبور .. هى رمز الخوف .

والدموع التى تذريها أيها الحزين ، هى أعذب من ضحك المتناسى ، وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من أدران البغض ، وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسرى القلب بشواعرة .. هى دموع الناصرى .

إن القوة التى زرعتها أيها الفقير ، واستغلها الغنى القوى سوف تعود إليك ، لأن الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذى عانيته أيها الحزين ، ينقلب فرحا بحكم السماء .

سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبه من الأحزان .

حديث الحب

فى بيت منفرد جلس فتى فى صبح الحياة ينظر آناً من النافذة إلى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة إلى رسم صبية بين يديه ، رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه فتظهر علته أسرار هذا العالم وخفايا الأبدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الأرواح السابحة فى فضاء تلك الغرفة ، ومبتدعة من مجموعه قلوباً أنارها الحب وأفعمها الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :

« يا حبيبة نفسى !

إن الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشرى إلى آخر بواسطة الكلام البشرى المتعارف ، لكنها تختار السكينة سبيلا بين النفوس . وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك التى يكتبها النسيم على وجه الماء تالية كتاب قلبينا على قلبينا .. ولكن مثلما شاء الله وجعل النفوس فى أسر الأجسام شاء الحب وجعلنى أسير الكلام .. يقولون يا حبيبتى إن الحب ينقلب بالعباد ناراً آكله ، وأنا وجدت أن ساعة الفراق لم تقو على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت عند أول لقاء أن نفسى تعرفك منذ دهور ، وأن أول نظرة إليك لم تكن

بالحقيقة أول نظرة ..

يا حبيبتى إن تلك الساعة التى جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوى ، هى ساعات قليلة تدعم اعتقادى بأزلية النفس وخلودها . فى مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهى والمظنون به ظلماً ..

هل تذكرين يا حبيبتى ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لى إن محبتك لى لم تنبثق من الشفقة على ؟ تلك النظرات التى علمتنى أن أقول لذاتى وللعالمين ، إن العطاء الذى يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذى يبتدىء من الحسنة ؟ وإن المحبة التى تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

أمامى يا حبيبتى حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخى ذكرى الإنسان الآتى وتستدعى اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأنى مؤمن بكونك قادرة على إظهار القوة التى أودعنى الله إياها ، متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة ، مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتى لى وللأجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصهابك » .

وقام الفتى ومشى بتمهل فى تلك الغرفة ، ثم نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الأفق وملأ الفضاء أشعة لطيفة ، فرجع وكتب فى تلك الرسالة :

« سامحينى يا حبيبتى فقد ناجيتك بضمير المخاطب ، وأنت نصفى

الجميل الذى فقدته عندما خرجنا من يد الله فى آن واحد .. سامحينى يا حبيبتى » .

الحيوان الأبكم

« وفى نظرات الحيوان الأبكم كلام تفهمه نفس الحكيم »

(شاعر هندى)

فى عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتى على عاقلتي مررت بأطراف أحياء المدينة ، ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطمت دعائمه ولم يبق منه سوى أثر يخبر عن هجر طويل ، ويدل على زوال محزن ، فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف ، واستحكمت العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل ، وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنه درى أن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة أنفاسها عن تلك البقعة المهجورة ، البعيدة عن الأولاد مضطهدى الحيوان الضعيف ، فصار يرمقها بعين آسفة مودعة . فاقتربت منه على مهل ، واداً لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه فى شدائده ، وأبدى له شفقة فى بؤسه . ولما دنوت منه خافنى وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال ، مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء . وإذ لم يقو على النهوض نظر إلى نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف .. نظرة فيها انعطاف وملامة .. نظرة قامت مقام النطق . فكانت أفصح من لسان الإنسان ، وأبلغ من دموع المرأة . ولما

تلاقت عيناى بعينيه الحزينتين تحركت عواطفي وتمايلت تـأثيراتى ، فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها أجساداً من كلام متعارف بين البشر . نظرات مفادها : « كفى ما بى يا هذا . وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس ، وما قـاسيت مـن ألم الأمـراض . امض واتركنـى وسكينتى أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة ، فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته ، والتجأت إلى رماد أكثر نعومة من قلبه ، واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه . اذهب عنى فما أنت إلا من سكان أرض ما برحت ناقصة الأحكام ، خالية من العدل . أنا حيوان حقير لكننى خدمت ابن آدم وكنت فى منزله مخلصاً ووفياً ، وفى رفقته متـربصاً وجاسوساً . كنت شريكا فى أحزانه ، ومغبوطاً فى أفراحه ، متذكراً أيام بعده ، مترحباً عند مجيئه ، وكنت أكتفى بفتات مائدته ، وأسعد بعظم حرده بأضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الأمـراض فى جسمى أظافرها ، نبذنى ، وأبعدنى عن داره ، وصيرنى ملعبة لصبيان الأزقة القساة ، وهدفاً لنبال العلل ، ومحطاً لرحال الأقذار . أنا يا ابن آدم حيوان ضعيف ، ولكنى وجدت نسبة كائنة بينى وبين الكثيرين من إخوانك البشر ، الذين إذا ما ضعفت قواهم قل رزقهم وساء حالهم ، أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن فى شبيبتهم ، ويستثمرون الأرض فى كهولتهم ، حتى إذا ما جاء شتـاء الحيـاة وقـل نفعهـم ، أبعدوهـم ونسوهم . أنا مثل امرأة تجملت صبية لتفريح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة فى الليالى لتربية الأطفال ، وتعبت امرأة لإيجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً ، وأمراً مكروها .. آه

ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك ! » .

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم ، وقلبي يفهم ، ونفسي تتراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بأبناء جلدتي . ولما أغمض عينيه لم أشأ إزعاجه فذهبت ..

السلم

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وأحنت الزروع ، وبانت النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على أديم السماء ، وسكنت تلك الحقول كأن حرب العناصر لم تكن .

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها ، وجثت على سريرها وبكت بكاء مراً، ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت أنفاسها الحارة بهذه الكلمات : « رده إليّ يا رب ، فقد جفت دموعي وذابت حشاشتي . أرجعه أيها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهى الإنسان ، فقد جفاني التجلد وتحكم بي الأسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحددة .. أنقذه من الموت القاسي ، وارحمه فتى ضعيفاً جنت عليه قوة القوى فسلبني إياه .. تغلبي أيتها المحبة على عدوتك الحرب ، أو خلصي حبيبي فهو من أبنائك .. ابتعد عنه أيها الموت ودعه يرني أو تعال وخذني إليه » .

في تلك الدقيقة دخل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء أحرفاً قرمزية ، واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ، ثم أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين ، وبصوت تألفت فيه عوامل

الحب الخارج ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلى فقد أتى من تبكين من أجله .. افرحى فقد أعاد إليك السلم من سرقه الحرب ، وأرجع إليك فتى الإنسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفى الدمع يا حبيبتى وابتسمى ، لأن للشعوب أيمة ترحم متى عمت قساوة أيمة الشعوب .. لا تعجبى من إيابى حياً ، فللحب وسم يراه الموت فينصرف ، ويتوسمه العدو فيقهقر .. أنا هو ، فلا تحسبينى خيالا جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنه جمالك والسكون : لا تخافى فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنة والنار لتخبر الناس بلغة الحب على الحرب .. أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك ».

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام ، وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع .

ولما جاء الصباح وقف الاثنان فى وسط الحقل يتأملان فى جمال الطبيعة ، وبعد سكينة فيها من الأحاديث ما فيها ، نظر الجندى نحو المشرق الأقصى وقال لحبيبته : « انظرى الشمس طالعة من الظلمة » .

الشاعر

حلقة توصل بين هذا العالم والآتى . منهل عذب تستقى منه النفوس العاطشة . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على أغصان الكلام وينشد أنغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاًورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد وتملأ وجه السماء وتنسكب لتروى أزهار حقل الحياة . ملك بعثته الآلهة ليعلم الناس الإلهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ملأته زيتاً عشتروت إلهة الحب ، وأشعله أبولون إله الموسيقى .

وحيد يرتدى البساطة ويتغذى اللطف ، ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلم الإبداع ، ويسهر فى سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زرّاع يبذر حبات قلبه فى رياض الشواعر فتنبت زرعاً خصيباً ، تستغله الإنسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذى تجهله الناس فى حياته ، وتعرفه عندما يودع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوى . هذا الذى لا يطلب من البشر إلا ابتسامة صغيرة ، والذى تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة ، والناس تبخل بالخبز والمأوى .

فإلى متى أيها الإنسان .. إلى متى أيها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للألى جبلوا أديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن

أنفسهم سلاما ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين أحنوا الرقاب بنير الاستعباد ، وتتناسى رجالا يسكبون نور الأحداق فى ظلمة الليل ليعلموك أن ترى بهاء النهار ، ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة .

وأنتم يا أيها الشعراء يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً عن قساوة الأجيال ، وفزتم بإكليل الغار غصباً عن أشواق الغرور ، وملكتم فى القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء .

يوم مولدى

كنت فى باريس فى ٦ كانون الأول « دسمبر » سنة ١٩٠٨ . فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى .

فى مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتنى السكينة بين أيدى هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدرى كم مرة سار القمر حولى ، لكننى لم أدرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام . قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب ، حول الناموس الكلى الأعلى . ولكن هو ذا نفسى تهمس الآن أسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهى كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغانى مده وجزره ، ولا تستطيع إدراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتنى يد الزمان كلمة فى كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها أنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعانى ، ترمز تارة إلى لا شىء ، وطوراً إلى أشياء كثيرة .

إن التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسى فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتتوقف أمامى مواكب الأيام الغابرة ، وترينى أشباح الليالى الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ،

فتضمحل فى زوايا غرفتى اضمحلال أناشيد السواقى فى الأودية البعيدة الخالية .

فى مثل هذا اليوم من كل سنة ، تجيء الأرواح التى رسمت روحى متراكضة نحوى من جميع أطراف العالم ، وتحيط بى مرتلة أغانى الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفى وراء المرئيات كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر .

فى هذا اليوم تنتصب أمامى معانى حياتى العابرة كأنها مرآة ضئيلة ، أنظر فيها طويلا فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الآمال والأحلام والأمانى المتجعدة كملامح الشيوخ . ثم أغمض عينى وأنظر ثانيه فى تلك المرآة فلا أرى غير وجهى ، ثم أحدق بوجهى فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة .

فى الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذى أحببته عندما كنت صبياً مازلت أحبه الآن . والذى أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة ، فالمحبة هى كل ما أستطيع أن أحصل عليه ، ولا يقدر أحد أن يفقدنى إياها .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة أتشبب به سراً وعلناً . ولئن لم أرسل الموت ولا نقضت له عهداً فإننى صرت أحب الحياة أيضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندى بالجمال ، وتضارعا

باللذة ، وتشاركا بإنماء شوقى وحنينى ، وتساهما محبتى وانعطافى .

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتى عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع إدراكى خضوعهم للأصنام المخيفة التى نحتتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكننى كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتى الحرية ، وأشفق عليهم لأنهم عميان يقبلون أحناك الضوارى الدامية ولا يبصرون . ويمتصون لهاث الأفاعى الخبيثة ولا يشعرون ، ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لأننى وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت خيالا شفافا يمر بين المنازل ، ويقف فى منعطفات الشوارع ، وينادى عابرى الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون .

وفى الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت أستيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكننى لم أجدها قط فى سبيلهم ، ولا رأيت أثر أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسى تهمس فى أذنى قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا فى أعماق القلب ، ولن تجىء إليه من محيطه » . ولما فتحت قلبى لكى أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكننى لم أجدها .

وقد أحببت الناس — أحببتهم كثيراً — والناس فى شرعى ثلاثة : واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد أحببت الأول لتعاسته ، والثانى لسماحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامى ولياليَّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتى ، مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف .

واليوم ، وقد وقفت متذكراً وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر إلى كل ناحية فلا أرى لماضى حياتى أثراً أستطيع أن أومىء إليه أمام وجه الشمس قائلا : هذا لى . ولا أجد لفصول أعوامى غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . فى هذه الأوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفى وأفكارى وأحلامى ، مثلما يدفن الزّراع البذور فى بطن الأرض ، ولكن الزارع الذى يخرج إلى الحقل ويلقى البذور بين ثنايا التراب ، يعود إلى بيته فى المساء آملا راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال . أما أنا فقد طرحت حبات قلبى بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار .

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى لى الماضى من وراء ضباب التنهيد والأسى ، وبان لناظرى المستقبل من وراء نقاب الماضى ، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلّور نافذتى ، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعى وقع أقدامهم بين المنازل ، وأشعر بملامس أرواحهم وتموجات أميالهم ونبضات قلوبهم ، أنظر فأرى الأطفال يلعبون ويذرون التراب بعضهم فى وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم ، كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشى الغيوم المبطنة بأشعة

الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن وينثنين كالأغصان ، ويتبسمن كالأزهار ، وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف ، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبى الظهور ، متوكئين على العصى ، محدقين بالأرض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها . أقف بجانب نافذتى وأنظر متأملا بجميع هذه الصور والأشباح الساكنة بمسيرها ، المتطايرة بدبيبها فى شوارع المدينة وأزقتها ، ثم أنظر متأملا بما وراء المدينة فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب ، والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والأودية المنخفضة ، والأشجار النامية ، والأعشاب المتمايلة ، والأزهار المعطرة ، والأنهار المترنمة ، والأطيار المغردة . ثم أنظر إلى ما وراء البرية فأرى البحر بكل ما فى أعماقه من الغرائب والعجائب ، والمدافن والأسرار ، وما على سطحه من الأمواج المزبدة ، الغضوبة المتسارعة المتهاونة ، والأبخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم أنظر متأملا بما وراء البحر ، فأرى الفضاء غير المتناهى بكل ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينهما من الدوافع والجواذب المتسالمة . المتنازعة المتولدة ، المتحولة المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشروع كلى ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . أنظر وأتأمل بجميع هذه الأشياء من خلال بلور نافذتى ، فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الأجيال وما سيأتى بعدها من القرون ، ويظهر لى كيانى ومحيطى بكل ما أخفاه وأعلنه ذرة من تنهدة طفل ترتجف فى خلاء أزلى الأعماق ، سرمدى العلو ، أبدى الحدود .

لكننى أشعر بكيان هذه الذرة .. هذه النفس .. هذه الذات التى أدعوها « أنا » . أشعر بحراكها ، وأسمع ضجيجها فهى ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء ، وتمتد يداها إلى كل ناحية ، وتتمايل مرتعشة فى مثل اليوم الذى أبانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة : « سلام أيتها الحياة ! سلام أيتها اليقظة ! سلام أيتها الرؤيا سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الأرض ! وسلام أيها الليل المظهر بظلمك أنوار السماء ؛ سلام أيتها الفصول ! سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الأرض ! سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس ! سلام أيها الخريف الواهب ثمار الأتعاب وغلة الأعمال ! سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة ! سلام أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام ! سلام أيتها الأجيال المصلحة ما أفسدته الأجيال ! سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال ! سلام أيها الروح الضابط أعنة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس ! وسلام لك أيها القلب لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع ! وسلام لك أيتها الشفاه لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة » .

الطفل يسوع والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً فى هذا العالم يا حبيبتى ، وكانت الوحدة قاسية كالموت ، وكنت منفرداً كالزهرة النابتة فى ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودى ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة ، واليوم قد استيقظت نفسى ورأتك منتصبة بقربها ، فتهيبت وتهللت ، ثم سجدت أمامك مثلما فعل ذلك الراعى عندما رأى العليقة مشتعلة .

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتى ، وأشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الأرض ، وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت أتلفت إلى كل ناحية فلا أرى غير ذاتى المتوجعة واقفة بجانبى ، وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولى كالغربان الجائعة . واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة وسكنت الأمواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التى يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة ، عندما يتحمم بمائها الهادئ .

كنت بالأمس كلمة صامتة فى خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة ، وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة يا حبيبتى قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء

الخارجة من قلب الأرض المظلم إلى نور النهار ، تلك الدقيقة هى من كل حياتى بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة .. لأنها جعلت الظلمة فى أعماق شعاعاً ، والكآبة مرحا ، والشقاء سعادة .

إن شعلات المحبة يا حبيبتى تهبط من السماء متموجة بصور متباينة ، وأشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها فى هذا العالم هو واحد ! فالشعلة الصغيرة تنير خلايا قلب الإنسان الفرد ، هى كالشعلة العظيمة المشعشعة التى تنحدر من الأعالى وتنير ظلمات الأمم جميعها ، لأن فى النفس الواحدة عناصر وأميال وعواطف لا تختلف قط عن العناصر والأميال والعواطف الكائنة فى نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتى يترقبون مجىء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الأمم ، وكانت النفس الكبيرة فى اليونان ترى أن عبادة المشترى ومينرفا قد ضعفت فلم تعد تشبع الأرواح من الروحيات . وكان الفكر السامى فى رومه يتأمل فيجد أن ألوهية أبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينوس الأبدى قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الأمم كلها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق إلى الحرية الروحية التى تعلم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هى الحرية الجميلة التى تخول الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل ، بعد أن يقنع الناس طرا بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من ألفى سنة يا حبيبتى ، عندما كانت عواطف القلب

البشرى تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلى الخالد .. عندما كان « بان » إله الأرواح يملأ نفوس الرعاة جزعا ، وبعل إله الشمس يضغط بأيدى كهانه على قلوب المساكين والضعفاء .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تنفرد عن الأجيال لأنها أقوى من الأجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التى كانت فى البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر ، وتجسدت وصارت طفلا بين ذراعى ابنة من البشر فى مكان حقير ، حيث يحمى الرعاة مواشيهم من كواسر الليل .. ذلك الطفل النائم على القش اليابس فى مذود البقر .. ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة إلى الروح ، والأفكار التائقة إلى الحكمة .. ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه الفقيرة ، قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشترى وأسلمه للراعى المسكين المتكىء على الأعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس فى زورقه على شاطئ البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من أبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعصياً أمام الأبواب . وسكب الجمال بجماله من فينوس وبثه فى روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذى ينثر فى الحقل البذور مع عرق الجبين .

* * *

أوَ لم تكن عواطفى بالأمس كأسباط إسرائيل يا حبيبتى ؟ أما ترقبت

فى سكينة الليل مجيء مخلص ينقذنى من عبودية الأيام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالأمم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طريق الحياة مثل صبى ضائع بين الأحياء المهجورة ؟ أوَ لم تكن نفسى كالنواة المطروحة على الصخر لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها .

قد كان ذلك كله بالأمس يا حبيبتى ، عندما كانت أحلامي تدب فى جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور .. عندما كان اليأس يلوى أضلعى والضجر يقومها .

ففى ليلة واحدة ، بل فى ساعة واحدة ، بل فى لمحة واحدة تتنحى عن سنى حياتى لأنها أجمل من سنى حياتى ، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر إلىّ من وراء عينيك ، وتكلم معى بلسانك . ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل فى أعشار قلبى .. هذا الحب العظيم الجالس فى هذا المذود المنزوى فى صدرى .. هذا الحب الجميل الملتف بأقمطة العواطف .. هذا الرضيع اللطيف المتكئ على صدر النفس قد جعل الأحزان فى باطنى مسرة ، واليأس مجداً ، والوحدة نعيما . هذا الملك المتعالى فوق عرش الذات المعنوية ، قد أعاد بصوته الحياة لأيامى الميتة ، وأرجع بملامسه النور إلى أجفانى المقرحه بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالى من لجة القنوط .

* * *

كان كل الزمن ليلا يا حبيبتى فصار فجراً ، وسيصير نهاراً لأن أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير . وكانت

حياتى حزناً فصارت فرحاً وستصير غبطة ، لأن ذراعى الطفل قد ضمتا قلبى وعانقتا نفسى .

مناجاة أرواح

استيقظى يا حبيبتى . استيقظى لأن روحى تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسى تمد جنحيها نحوك فوق الأمواج المزبدة الغضوبة . استيقظى فقد سكنت الحرية ، وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر فبقيت وحدى مستيقظاً لأن الشوق ينتشلنى كلما أغرقنى النعاس ، والمحبة تدنينى إليك عندما تقصينى الهواجس . قد تركت مضجعى يا حبيبتى خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لأن تأوهى قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عينى . استيقظى ! استيقظى يا حبيبتى واسمعينى !

ــ ها أناذا يا حبيبى ! قد سمعت نداءك من وراء البحار ، وشعرت بملامس جناحيك فانتبهت وتركت مخدعى وسرت على الأعشاب فتبللت قدماى وأطراف ثوبى من ندى الليل ! ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة أسمع نداء نفسك يا حبيبى !

ــ تكلمى يا حبيبتى ! ودعى أنفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوى من أودية لبنان . تكلمى فلا سامع غيرى ، لأن الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات إلى أوكارها ، والنعاس أسكر سكان المدينة ، وبقيت وحدى

صاحيا .

* * *

قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي !

ـــ قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت ، وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي !

ـــ قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز و الصفصاف ، وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الأحلام يا حبيبي

ـــ قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم فارتموا على الفرش ، وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي !

* * *

ـــ قد سرت في الأودية خيالات الأجيال الغابرة ، وحامت على الروابي أرواح الملوك والأنبياء ، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظائم الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .

ـــ قد سرت في الأزقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الأمراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان ، وأرتني مكاره صادوم وآثام عاموره .

* * *

ـــ قد تمايلت الأغصان يا حبيبي ، وتحالف حفيفها مع خرير ساقية

الوادى ، ورددت على مسامعى نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغانى الموصلى .

ـــ قد ارتعشت نفوس أطفال الحى وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندباً ورثاء . .

ـــ قد فاحت روائح النرجس والزنبق ، وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ، ثم تمازجت بأنفاس الأرز الطيبة ، وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً إلى الطيران .. قد تصاعدت روائح الأزقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء .

ـــ ها قد جاء الصباح يا حبيبى ، وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام ، وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الجبل ، وأزالت غشاء الليل من عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادى ، وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية . وقد غادرت العجول مرابضها ، وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها ، وانثنت نحو الحقول ترتعى رؤوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى .. ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبابات ، ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح .

(دمعة وابتسامة)

ــ قد جاء الصباح يا حبيبى وانبسطت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة ، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب ، فبانت الوجوه الكالحه والعيون المعروكة ، وذهب التعساء إلى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت فى جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان القنوط والخوف كأنهم منقادون قهراً إلى عراك مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوى الدواليب وعويل البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوى الضعيف ، ويستأثر الغنى المظلوم بأتعاب الفقير المسكين .

* * *

ــ ما أجمل الحياة هٰهنا يا حبيبى ، فهى مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة .

ــ ما أقسى الحياة هٰهنا يا حبيبى ، فهى مثل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف .

أيتها الريح

تمرين آناً فرحة مترنحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فإنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتها وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج ، ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ، ويترفع مع الأقوياء المتشامخين .

في الخريف تنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها .

لكن .. أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد عريتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج ؟ أعليلة كنت أيام الربيع ، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تسعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده ؟ أميتة كنت أيام الصيف أم هاجعة في قلوب الأثمار ، وبين جفنات الكروم ، وعلى بيادر القش ؟ .

* * *

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ، ومن الـروابى أرواح الأزهار ، وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التـى تحمـل أوجـاع الحيــاة بسكينة ، وبسكينة تلتقى بأفراحها .

أنت تهمسين فى أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم ، وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

أنت تبطئين هنا وتسارعين هناك وتراكضين هنـالك ، ولكـنك لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الإنسان التى تحيا بالحركة وتموت بالسبات .

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعـل الشعراء المترددون . من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء . أمتقلبـة أنتِ كالدهـر ! أم أنتِ رسول الجهات تبلغين إلينا ماتاً تمنك عليه ؟

تمرين غاضبة فى الصحارى فتدوسين القوافل بقساوة ، ثم تلحدينها بلحف الرمال . فهل أنتِ أنتِ ذاك السيال الخفى المتموج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام فى منعطفات الأودية ، حيث تتمايل الأزهار شغفاً بك ، وتتخاصر الأعشاب سكراً من أنفاسك ؟ .

تثورين ظلماً فى البحار فتحركين ساكن أعماقها ، حتى إذا أزبدت حنقاً عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والأرواح لقما مرة . فهل أنت أنت ذلك المحب المتلاعب حنواً بغدائر الأطفال المتراكضين حول المنازل ! إلى أين تتسارعين بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحملين رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة ؟ هل تذهبين

بها إلى ما وراء الشفق .. إلى ما وراء هذه الحياة ؟ أم تجرينها فريسة إلى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة ، وهناك تقذفينها يميناً وشمالا حتى تضمحل وتختفى ؟ .

فى سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحلك العيون اهتزازات أجفانها . فهل أنت ذا كرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون ؟ .

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته ، والحزينة تأوهاتها . وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها . فهل أنت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئاً إلا وتحوله إلى جسمها ؟ .

أسامعة أنت هذا النداء ، وهذا العويل وهذا الضجيج وهذا البكاء ، أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الأكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد نحوهم الأصوات فلا يسمعون ؟ .

أسامعة أنت يا حياة للسامع ؟ .

رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتى انهزم الأعداء ، وفى ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر ، منشدين أهازيج النصر ، على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادى .

أشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء ، وباتت غابة الأرز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقته الأجيال الغابرة على صدر لبنان .

ظلوا سائرين وأشعة القمر تتلمع على أسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى إذا ما بلغوا جبهة العقبة أوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنه قُدَّ منها . فاقتربوا منه مستطلعين ، وإذا بجثة هامدة مرتمية على أديم التراب المجبول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم قائلا « أرونى سيف الرجل فأعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان فأحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت أحدهم نحو الزعيم وقال بصوت أجش : « وقد عانقت أصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار أن ننزعه » .

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاختفى فولاذه »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة ، وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً » .

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلا : « أسندوا رأسه ودعوا أشعة الشمس ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد .. وجه فارس قوى يتكلم بلا نطق عن شدة رجولته . وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسما ، وجه بطل لبنانى حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنه لم يبق لينشد مع رفقاه أهازيج النصر .

ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفر ، ذعر الزعيم وصرخ متوجعاً : « هذا ابن الصعبى ! فياللخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت خسارة هذا البطل هى أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وأيبس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت فى نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالأطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً .. ذلك السكوت الذى يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة .. ذلك السكوت الذى يترفع عن الدموع والعويل ، فيزيد بترفعه البلية هولا وقساوة .. ذلك السكوت الذى يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى أعماق اللجج .. ذلك السكوت الذى يعلن مجىء العاصفه ، وإن لم تجىء

كان هو أشد فعلا منها .

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار فى صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم فى هدوء ذلك الليل عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواه منديلا مطرزاً بخيوط الذهب مربوطا حول زنده ، فتأمله سراً وعرف اليد التى غزلت حريره ، والأصابع التى حاكت خيوطه . فستره بالأثواب وتراجع قليلا إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة .. تلك اليد التى كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشى منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعا ببسالته ، فصرع وسوف يرجع إليها محمولا على أكف رفاقه . وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة فتشرب أصولها من دمه ، وتتغذى فروعها من بقاياه فتزداد قوة ، وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه ».

فقال آخر : « لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه محفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر » .

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه بيمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه فى هذه الوحدة » . وقال آخر : لاتلحدوا سيفاً مضرجا بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا فى الوعر

سلاحا تعود هز الأكف وعزم السواعد ، بل احملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث » . وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصرى ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا » . وقال : « لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف به فى هذا الوادى منشدين أهازيج النصر فيشاهد أشلاء الأعداء ، وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر » . وقال آخر : « تعالوا نعليه سرج جـواده ، ونسنده بجماجم القتلى ، ونقلده رمحه ، وندخله الأحياء ظافراً فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حملها من أرواح الأعداء حملا ثقيلا» وقال آخر : « تعالوا نودعه لحف هذا الجبل فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقى مؤنسا ، فترتاح عظامه فى برية يكون فيها وقع أقدام الليالى خفيف الوطأة » . وقال آخر : « لاتغادروه هٰهنا ففى البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه فى سكينة الليل ، وتقص عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم » . فتقدم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأسكتهم بإشارة ، ثم قال متنهداً: «لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط رأسه . ففى ذلك الحى نفس ساهرة ترقب قدومه .. نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الأسنة . فلنعيده إليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه ».

حملوه على المناكب مطأطئى الرؤوس خاشعى العيون ، مشوا

بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الأرض ويصهل من وقت إلى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأن للكهوف أفئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والأسى .

بين أضلع ذلك الوادى حيث أشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصروراء موكب الموت ، وقد مشى أمامهما طيف الحب ساحباً أجنحته المكسورة .

جمال الموت

مرفوعة إلى M. E. H

دعونى أنم فقد سكرت نفسى بالمحبة . دعونى أرقد فقد شبعت روحى من الأيام والليالى . أشعلوا الشموع وأوقدوا المباخر حول مضجعى ، وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدى ، وعفروا بالمسك المسحوق شعرى ، وأهرقوا الطيوب على قدمى ، ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت على جبهتى . خلونى غارفاً بين ذراعى الكرى فقد تعبت أجفانى من هذه اليقظة . اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية تتمايل فى مسامعى . انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة نقاباً حول قلبى المتسارع نحو الوقوف . ترنموا بالأغانى الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفى ، تأملوا وانظروا شعاع الأمل فى عينى .

امسحوا الدموع يارفاق ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار تيجانها عند قدوم الفجر ، وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعى والفضاء .. أمسكوا أنفاسكم وأصغوا هنيهة واسمعوا معى حفيف أجنحتها البيضاء . تعالوا ودعونى يابنى أمى ! قبلوا جبهتى بشفاه مبتسمة . قبلوا شفتى بأجفانكم وقبلوا أجفانى بشفاهكم . قربوا

الأطفال إلى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الوردية الناعمة . قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابله المتجمدة . دعوا بنات الحي يقتربن وينظرن خيال الله فى عيني ، ويسمعن صدى نغمة الأبدية متسارعة مع أنفاسى .

الانفصال — ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحى فى فضاء الحرية والانعتاق . قد صرت بعيداً بعيداً يا بنى أمى فالحجبت عن بصيرتى جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الأودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات بأكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء أشباح بيضاء كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراء كوشاح المساء . قد تضعضعت أغانى أمواج البحر ، واضمحلت ترنيمة السواق فى الحقول ، وسكنت الأصوات المتصاعدة من جوانب الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متألفة مع أميال الروح .

الراحة — اخلعوا نسيج الكتان عن جسدى وكفنونى بأوراق الفل والزنبق . انتشلوا بقاياى من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون . لا تندبونى يابنى أمى بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة . لاتذرفى الدموع يا ابنة الحقول بل ترنمى بموشحات أيام الحصاد والعصير . لاتغمروا صدرى بالتأوه والتنهيد بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح . لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين بل دعوا قلوبهم تتهلل معى بتسبيحة البقاء والخلود . لا تلبسوا السواد حزناً علىّ بل تردوا بالبياض فرحا معنى ، ولا تتكلموا عن ذهابى

بالغصات بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده . مددوني على أغصان مورقة ، وارفعوني على الأكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية . لا تحملوني إلى الجبانة لأن الزحام يزعج راحتي ، وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي . احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق . احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي . احفروا قبراً وسيعاً لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبي . اخلعوا هذه الأثواب ودلوني عارياً إلى قلب الأرض . مددوني ببطء وهدوء على صدر أمي . أغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي أميالي وأحلامي . اتركوني الآن يابني أمي .. أتركوني وحدي أسير بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الأودية الخالية . دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تتفرق أزاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان . ارجعوا إلى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه مني ومنكم . اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونه صار بعيداً بعيداً عن هذا العالم ..

أغانى ــ أغنية

فى أعماق نفسى أغنية لا ترتدى الألفاظ ثوباً ، أغنية تقطن حبة قلبى ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق . وتحيط بعواطفى كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لسانى كالرضاب . كيف أتنهدها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسى فأخشى عليها من خشونة الآذان ؟ إن نظرت إلى عينى رأيت خيال خيالها ، وإن لمست أطراف أصابعى شعرت باهتزازاتها . أعمال يدى تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم ودموعى تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة السكينة ويطويها الضجيج ، وترددها الأحلام وتخفيها اليقظة . هى أغنية الحب أيها الناس ، فأى إسحق ينشدها بل أى داود يرتلها ؟ . هى أعبق من أنفاس زهـرة الياسمين ، فأية حنجرة تستعيدها ، وأصون من سر العذارى فأية أوتار تستبيحها ؟ .

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ، ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ، أى بَشَرِى ينشد أغنية الآلهة ؟ .

أغنية الموج

أنا والشاطئ عاشقان ، يرقبهما الهوى ويفصلهما الهواء . أجئ من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدى بذهب ماله ، وأبرد حرارة قلبه برضابى . عند الفجر أتلو شرع الغرام على مسامع حبيبى فيضمنى إلى إلى صدره . وفى المساء أترنم بصلاة الشوق فيقبلنى . أنا لجوج جزوع وحبيبى حليف صبر وأليف تجلد ، يأتى المد فأعانق حبيبى ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه . كم رقصت حولى بنات البحر عندما كن يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسن فساعدته على التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهى جامدة وداعبتها ضاحكا ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً وجئت بها إلى الأحياء . وكم سرقت من الأعماق دراً أهديته إلى ربات الجمال .

فى سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى ، أسهر مترنماً تارة متنهداً أخرى . ويحى لقد أتلفنى السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة . هذه حياتى وذا ما عشت أصنعه .

أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق بي الأودية . أنا لآلىء جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصعت بي الحقول ، أنا أبكي فتبتسم الطلول ، وأتضع فترتفع الأزهار . الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف أنهمل فأبرد غليل هذا وأشفي علة تلك . صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي ، وقوس القزح يعلن نهاية سفرتي .. كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبى وتنتهي على أكف الموت الهادئ . أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزاهرها وعانقت أغصانها . في السكينة أطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة . حرارة الهواء تلدني وأنا أقتل حرارة الهواء .. كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل . أنا تنهدة البحر ، أنا دمعة السماء ، أنا ابتسامة الحقل . كذا الحب تنهدة من بحر العواطف ، ودمعة من سماء التفكر ، وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب ، أنا وردة أفتح قلبى عند فتوة النهار ، فتأخذنى الصبية وتقبلنى وتضعنى على صدرها . أنا بيت السعادة ، أنا مصدر الفرح ، أنا مبدأ الراحة . أنا ابتسامة لطيفة على شفتى غادة ، يرانى الشاب فينسى أتعابه ، وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة . أنا موحى الشعراء وهادى المصورين ومعلم الموسيقيين . أنا نظرة فى عين طفل تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلى وتمجد الله . تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان فى قد حبيبته فصيرته حكيما وشاعراً . ابتسمت لهيلانة فخربت تروادة ، وتوجت كليوباترا فعم الأنس فى وادى النيل . أنا كالدهر أبنى اليوم وأهدم غداً . أنا الله أحيي وأميت . أنا أرق من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من العاصفة . أنا حقيقة يا أيها الناس .. أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أغنية السعادة

الإنسان حبيبى وأنا حبيبته ، أشتاق إليه ويهيم بى . ولكن أواه ! لى فى محبته شريكة تشقينى وتعذبه ، وضرة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب ، وتفرقنا كالرقيب . أطلب حبيبى فى البرية تحت الأشجار وبقرب البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته وذهبت به إلى المدينة إلى الاجتماع والفساد والشقاء . أطلبه فى معاهد المعرفة وفى هياكل الحكمة فلا أجده ، لأن المادة .. تلك التى ترتدى التراب قد قادته إلى معاقل الأنانية حيث يقطن الانهماك . أطلبه فى حقل القناعة فلا أجده ، لأن عودتى قد قيدته فى مغائر الطمع والشراهة . أناديه عند الفجر عندما يتبسم المشرق فلا يسمعنى ، لأن كرى الاستمساك قد أثقل عينيه . أداعبه فى المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار فلا يحفل بى ، لأن انشغافه بمآتى الغد يشغل ضميره . حبيبى يحبنى .. يطلبنى فى أعماله ، وهو لن يجدنى إلا فى أعمال الله . يروم وصالى فى صرح المجد الذى بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة ، وأنا لا أوافيه إلا فى بيت البساطة الذى بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلى أمام الطغاة والقتلة ، وأنا لا أدعه يلثم ثغرى إلا فى الوحدة بين أزهار الطهر . يبتغى الحيلة وسيطاً بيننا ولا أطلب وسيطاً إلى العمل المنزه .. العمل الجميل . قد تعلم حبيبى الصراخ والضجيج من عدوتى المادة ، وأنا سوف أعلمه أن يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ، ويتنهد تنهدة استكفاء ، حبيبى لى وأنا له .

أنشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها . أنا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر . أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف . أنا هدية المحبين .. أنا إكليل العرس .. أنا آخر عطية من حي إلى ميت . عند الصباح أتعاون والنسيم على إعلان مجيء النور ، وفي المساء أشترك مع الطيور بوداعة . أتمايل في السهول فأزينها ، وأتنفس في الهواء فأعطره أضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة ، وأطلب اليقظة لأحدق بعين النهار الوحيدة . أنا أشرب خمرة الندى ، وأسمع أغاني الشحارير ، وأرقص على تصفيق الأعشاب . أنا أنظر إلى العلو دائماً كي أرى النور ولا أرى خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان بعد .

نشيد الإنسان

« وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

(القرآن الشريف)

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء . سبحت فى فضاء اللانهاية وطرت فى عالم الخيال واقتربت من دائرة النور الأعلى ، وها أنا الآن سجين المادة . سمعت تعاليم كنفوشيوس وأصغيت لحكمة براهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور إذ تجلى « يهوه » لموسى ، وفى عبر الأردن فرأيت معجزات الناصرى ، وفى المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وها أنا الآن أسير الحيرة . شاهدت قوات بابل ومجد مصر وعظمة اليونان، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية فى جميع تلك الأعمال . جالست سحرة عين دور وكهنة أشور وأنبياء فلسطين وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة التى نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ، ومازلت أعمى لا أرى ، وأصم لا أسمع . احتملت قساوة الفاتحين الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين ، وعبودية الأقوياء

الباغين ، وما برحت ذا قوة أكافح بها الأيام . شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ، ولسوف أشاهد وأسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ، ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع إلى الله . أنا كنت منذ الأزل ، وها أناذا ، وسأكون إلى آخر الدهر وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

١

القوة تزرع فى أعماق قلبى ، وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين . الروح يحيى هذه الجفنة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا أنيره وأضعه فى نافذة بيتى من أجل العابرين فى ظلمة الليل . أنا فاعل هذه الأشياء لأننى أحيا بها ، وإذا منعتنى الأيام وغلت يدى الليالى طلبت الموت ، فالموت أخلق بنبىّ منبوذ فى أمته ، وشاعر غريب بين أهله . البشر يضجون كالعاصفة ، وأنا اتنهد بسكينة لأنى وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر ، أما التنهدة فتبقى ببقاء الله . البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج ، وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى صدرى فتأكل ضلوعى وتبرى أحشائى ، لأنى ألفيت المادة تميت الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالأوجاع . البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع . وأنا أرى ذاتى غريباً فى بلد واحد وخارجا عن أمة واحدة ، فالأرض كلها وطنى ، والعائلة البشرية

عشيرتى ، لأنى وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغر أن ينقسم على ذاته ، والأرض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات . البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ، وأنا وحدى واقف فى موقف الرثاء . على أننى أصغى فأسمع من داخلى صوت الأمل قائلا « مثلما تحيى المحبة القلب البشرى بالأوجاع ، كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة . فالأوجاع والغباوة تؤول إلى لذة عظيمة ومعرفة كاملة ، لأن الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلا تحت الشمس » .

٢

أحن إلى بلادى لجمالها ، وأحب سكان بلادى لتعاستهم ، ولكن إذا ماهب قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريبى وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه ، وسقوا أرضه دماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه ، كرهت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى .

أتشبب بذكر مسقط رأسى ، وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ، ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومنع مطروداً ، استبدلت تشبيبى بالرثاء وشوقى بالسلو وقلت بذاتى : إن البيت الذى يضن بالخبز على محتاجه وبالفراش على طالبه ، لهو أحق البيوت بالهدم والخراب . أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى ، وأحب بلادى

بقسم من محبتى لأرض وطنى ، وأحب الأرض بكليتى لأنها مرتع الإنسانية روح الألوهية على الأرض .. تلك الإنسانية واقفة بين الخرائب ، الساترة قامتها العاربة بالأطمار البالية الذارفة الدموع السخينه على وجنتيها الذابلتين ، المنادية أبناءها بصوت يملأ الأثير أنة وعويلا ، وأبناؤها المشغولين عن ندائها بأغانى العصبية ، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف . تلك الإنسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون ، وإن سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزاها فى شدائدها قال القوم ، اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف . الإنسانية روح الألوهية على الأرض ، تلك الألوهية السائرة بين الأمم ، المتكلمة بالمحبة ، المشيرة إلى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها . تلك التى سمعها بالأمس الناصرى فصلبوه ، وسقراط فسموه ، والتى سمعها اليوم القائلون بالناصرى وسقراط وجاهروا باسمها أمام الناس ، والناس لا يقدرون على قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية أقسى من القتل وأمر . ولم تقو أورشليم على قتل الناصرى فهو حى إلى الأبد ، ولا اثينا على إعدام سقراط ، فهو حى إلى الأبد ، ولن تقوى السخرية على مسامعى الإنسانية وتابعى أقدام الألوهية ، فسيحيون إلى الأبد .. إلى الأبد ..

٣

أنت أخى وكلانا ابن روح واحد قدوس كلى . وأنت مماثلى لأننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وأنت رفيقى على طريق الحياة ومسعفى فى إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت إنسان وقد أحببتك يا أخى . قل عنى ماشئت فالغد يقضى عليك ، ويكون قولك قرينة ظاهرة أمام حكمه ، وبيّنة صائبة لدى عدله . خذ منى ماشئت فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت بـه لمطامعى ، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه .

(تم هذا الكتاب بعونه تعالى)

فهرست

رقم الإيداع ٣٥٢٦ / ١٩٩١
الترقيم الدولى ٠ ــ ٠٦٥٧ ــ ١١ ــ ٩٧٧